٥

صفوة التفاسير

القسم الخامس

تفسير السور الكريمة

التوبة - يونس - هود

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الخامس

تفسير السور الكريمة

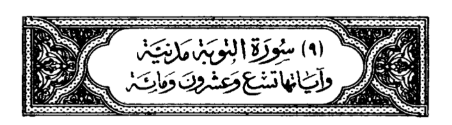
التوبة - يونس - هود

بقلم
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـــ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة[1] ، وروى الحافظ ابن كثير : أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك ، وبعث أبا بكر الصديق أميراً على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام[2] نزلت في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم ، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ « غزوة تبوك » وكانت في حرٍّ شديد ، وسفر بعيد ، حين طابت الثمار ، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة ، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين ، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم لدين الله ، وتمييزاً بينهم وبين المنافقين ، ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان - إلى جانب الأحكام الأخرى - هما :

أولاً : بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين ، وأهل الكتاب .

ثانياً : إظهار ما كانت عليه النفوس حينما استنفرهم الرسول لغزو الروم .

* أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حداً ، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام ، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين ، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية ، وإباحة التعامل معهم ، وقد كان بين النبي ﷺ والمشركين عهود ومواثيق ، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضاً ، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين ، وخانت طوائف اليهود « بنو النضير » و « بنو قريظة » و « بنو قينقاع » ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ونقضوا عهودهم مرات ومرات ، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها اعداؤهم ، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوحٍ وبصيرة ، لأن الناكثين لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت لهم الفرصة ، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين

---

(١) البخاري ٨/ ٢٢٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١٢٣ .

والمشركين من صلات ، فلا عهد ، ولا تعاهد ، ولا سلم ، ولا أمان ، بعد أن منحهم الله فرصة كافية هي السياحة في الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها آمنين ، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم ، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم . وفي ذلك نزل صدر السورة الكريمة ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . .﴾ الآيات .

* ثم تلتها الآيات في قتال الناقضين للعهود من أهل الكتاب ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . .﴾ الآية ،وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من عشرين آية ، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا أهل الكتاب ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبثٍ ومكر ، وحقدٍ على الإسلام والمسلمين .

* وعرضت السورة للهدف الثاني ، وهو شرح نفسيات المسلمين حين استنفرهم رسول الله ﷺ لغزو الروم ، وقد تحدثت الآيات عن المتثاقلين منهم والمتخلفين ، والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين ، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين ، وفضحت أساليب نفاقهم ، وألوان فتنتهم وتخذيلهم للمؤمنين ، حتى لم تدع لهم ستراً إلا هتكته ، ولا دخيلة إلا كشفتها ، وتركتهم بعد هذا الكشف والايضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين ، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءاً من قوله تعالى ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك . .﴾ إلى قوله تعالى ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾[1] ولهذا سماها بعض الصحابة « الفاضحة » لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم ، قال سعيد بن جبير : سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة ، ما زال ينزل : ومنهم ، ومنهم ، حتى خفنا ألا تدع منهم أحداً[2] ، وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال : إنكم تسمونها سورة التوبة ، وإنما هي سورة العذاب ، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه[3] ، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها قال ابن عباس : سألت علي بن أبي طالب لِم لَمْ يُكتب في براءة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ؟ قال : لأن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ، ليس فيها أمان ، وقال سفيان بن عيينة : إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة لأن التسمية رحمة ، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف ، ولا أمان للمنافقين[4] .

* وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت « الطابور الخامس » المندس بين صفوف المسلمين ألا وهم « المنافقون » الذين هم أشد خطراً من المشركين ، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم ، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تُبق منهم دياراً ، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام ، أن يتخذوا بيوت الله أوكاراً للتخريب والتدمير ، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين ، في مسجدهم الذي عرف باسم « مسجد الضرار » وقد نزل في شأنه أربع آيات في هذه السورة ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . .﴾ الآيات ولم يكد النبي ﷺ

---

(١) الآيات من (٤٢ ـ الى ١١٠) ويكاد يكون جو السورة في النفاق والمنافقين . (٢) القرطبي ٨/ ٦١ .
(٣) الكشاف ٢/ ٢٤١ . (٤) القرطبي ٨/ ٦٣ .

يتلقى الوحي حتى قال لأصحابه : (انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرّقوه) فهدموه وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم ، وكيدهم ، وخبثهم ، وفضحهم إلى يوم الدين .

التسمية : تسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسماً ، قال العلامة الزمخشري : لهذه السورة عدة أسماء : (براءة ، والتوبة ، والمقشقشة ، والمبعثرة ، والمشردة ، والمخزية ، والفاضحة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمنكلة ، والمدمدمة ، وسورة العذاب) قال : لأن فيها التوبة على المؤمنين ، وهي تقشقش من النفاق أي تبرىء منه ، وتبعثر عن أسرار المنافقين ، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها ، وتفضحهم ، وتنكل بهم ، وتشردهم ، وتخزيهم ، وتدمدم عليهم[1] .

قال الله تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . إلى . . أجر عظيم﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغة : ﴿براءة﴾ برئت من الشيء : إذا قطعت ما بينك وبينه من سبب وأزلته عن نفسك ، قال الزجاج : برئت من الرجل والدين براءة ، وبرئت من المرض بُروءاً[2] ﴿فسيحوا﴾ السياحة : السير في الأرض والذهاب فيها للتجارة أو العبادة أو غيرهما ﴿أذان﴾ الأذان : الإعلام ومنه أذان الصلاة ﴿مرصد﴾ المرصد : الموضع الذي يرقب فيه العدو من قولهم : رصدت فلاناً إذا ترقبته قال الشاعر : إن المنية للفتى بالمرصد[3] ﴿استجارك﴾ طلب جوارك أي أمانك ﴿إلاًّ﴾ الإلُّ : العهد والقرابة وأنشد أبو عبيدة :

أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الإلَّ وأعراف الرحم[4]

﴿نكثوا﴾ النكث : النقض وأصله في كل ما فُتل ثم حل ﴿وليجة﴾ بطانة ودخيلة ، قال أبو عبيدة : كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة وأصله من الولوج ، فالداخل في القوم وليس منهم يسمى وليجة[5] وقال الفراء : الوليجة : البطانة من المشركين يفشي إليهم سره ، ويعلمهم أمره .

سبب النزول : روي أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر ، وفيهم « العباس بن عبد المطلب » فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فعيّروهم بالشرك ، وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ؟ فقال : وهل لكم من محاسن ؟ فقال : نعم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحجيج ، ونفك العاني - الأسير - فنزلت هذه الآية ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر . .﴾ الآية[6] .

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤١ . (٢) زاد المسير ٣/ ٣٩٢ . (٣) القرطبي ٨/ ٧٣ .
(٤) البحر المحيط ٥/ ٣ . (٥) الرازي ١٦/ ٥ . (٦) زاد المسير ٣/ ٤٠٧ .

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ﴾

التفسير : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي هذه براءة من المشركين ومن عهودهم كائنة من الله ورسوله قال المفسرون : أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك ، ثم أتبعه علياً ليعلم الناس بالبراءة ، فقام علي فنادى في الناس بأربع : ألاّ يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك ، وألا يطوف بالبيت عريان ، وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم ، ومن كان بينه وبين رسول الله مدة فأجله إلى مدته ، والله بريء من المشركين ورسولهُ ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ أي سيروا آمنين أيها المشركون مدة أربعة أشهر لا يقع بكم منا مكروه ، وهو أمر إباحة وفي ضمنه تهديد ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي لا تفوتونه تعالى وإن أمهلكم هذه المدة ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾ أي مذلهم في الدنيا بالأسر والقتل ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس﴾ أي إعلام الى كافة الناس بتبريء الله تعالى ورسوله من المشركين ﴿يوم الحج الأكبر﴾ أي يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك قال الزمخشري : وصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر[1] ﴿أن الله بريء من المشركين ورسولُهُ﴾ أي إعلام لهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم ، ورسوله بريء منهم أيضاً ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ أي فإن تبتم عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من التمادي في الضلال ﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ معجزي الله﴾ أي وإن أعرضتم عن الإسلام وأبيتم إلا الاستمرار على الغيّ والضلال ، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً ، ولا تُعجزونه هرباً ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي بشر الكافرين بعذاب مؤلم موجع يحل بهم قال أبو حيان : جعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم ، وفي هذا وعيد عظيم لهم[2] ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي إلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتموا إليهم عهدهم قال في الكشاف : وهو استثناء بمعنى الاستدراك أي لكن من وفى ولم ينكث فأتموا عليهم عهدهم ، ولا تجروهم مجراهم ، ولا تجعلوا الوفي كالغادر[3] ﴿ثم لم يَنقُصوكم شيئاً﴾ أي لم ينقصوا من شروط الميثاق شيئاً ﴿ولم يُظاهروا عليكم أحداً﴾ أي لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ أي وفوا العهد

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٥ . (٢) البحر ٥/ ٨ . (٣) الكشاف ٢/ ٢٤٦ .

ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ

كاملاً إلى انقضاء مدته ﴿إن الله يحب المتقين﴾ أي يحب المتقين لربهم الموفين لعهودهم قال البيضاوي : هذا تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى[1] قال ابن عباس : كان قد بقي لحيٍّ من كنانة من عهدهم تسعة أشهر ، فأتم ﷺ إليهم عهدهم ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ أي مضت وخرجت الأشهر الأربعة التي حرم فيها قتالهم ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ أي اقتلوهم في أي مكانٍ أو زمان من حلٍّ أو حرم ، قال ابن عباس : في الحلِّ والحرم وفي الأشهر الحرم[2] ﴿وخذوهم﴾ أي بالأسر ﴿واحصروهم﴾ أي احبسوهم وامنعوهم من التقلب في البلاد قال ابن عباس : إن تحصنوا فاحصروهم أي في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي اقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه ، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم قال في البحر : وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال[3] ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي فإن تابوا عن الشرك وأدوا ما فرض عليهم من الصلاة والزكاة ﴿فخلوا سبيلهم﴾ أي كفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾ أي إن استأمنك مشرك وطلب منك جوارك ﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ أي أمنه حتى يسمع القرآن ويتدبره قال الزمخشري : المعنى إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر ، لا عهد بينك وبينه ، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن ، فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطّلع على حقيقة الأمر[4] أقول : هذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق ، لأن المراد ليس النيل من الكافرين ، بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق فيتبعوه ، ويتركوا ما هم عليه من الضلال ﴿ثم أبلغه مأمنه﴾ أي ثم إن لم يُسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ أي ذلك الأمر بالإجارة للمشركين ، بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الإسلام ، فلا بد من أمانهم حتى يسمعوا ويتدبروا ، ثم بين تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين فقال ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾ استفهام بمعنى الانكار والاستبعاد أي كيف يكون لهم عهد معتدٌ به عند الله ورسوله ، ثم استدرك فقال ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ أي لكن من عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد قال ابن عباس :

(١) البيضاوي ٢١٨ . (٢) زاد المسير ٣/٣٩٨ . (٣) البحر المحيط ٥/١٠ . (٤) الكشاف ٢/٢٤٨ .

﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ﴾

هم أهل مكة وقال ابن اسحاق : هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم[1] ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على العهد قال الطبري : أي فما استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على الوفاء[2] ﴿إن الله يحب المتقين﴾ أي يحب من اتقى ربه ، ووفى عهده ، وترك الغدر والخيانة ﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أي كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ﴿لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة﴾ أي لا يراعوا فيكم عهداً ولا ذمة ، لأنه لا عهد لهم ولا أمان قال أبو حيان : وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد[3] ﴿يُرضونكم بأفواههم﴾ أي يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم ﴿وتأبى قلوبهم﴾ أي وتمتنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه قال الطبري : المعنى يعطونكم بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء ، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم[4] ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ أي وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي استبدلوا بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي منعوا الناس عن اتباع دين الإسلام ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه ﴿لا يرقبون في مؤمنٍ إلاً ولا ذمة﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه عهداً ولا ذمة ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ أي وأولئك الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة هم المجاوزون الحد في الظلم والبغي ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فإخوانكم في الدين﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ﴿ونفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم ، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ أي وإن نقضوا عهودهم الموثقة بالأيمان ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي عابوا الإسلام بالقدح والذم ﴿فقاتلوا أئمة

---

(١) البحر ١٢/٥ . (٢) الطبري ٨١/١ . (٣) البحر ١٣/٥ . (٤) الطبري ٨٥/١٠ .

مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ

الكفر﴾ أي رؤساء وصناديد الكفر **﴿إنهم لا أيمان لهم﴾** أي لا أيمان لهم ولا عهود يوفون بها **﴿لعلهم ينتهون﴾** أي كي يكفوا عن الإجرام ، وينتهوا عن الطعن في الإسلام ، قال البيضاوي : وهو متعلق بـ « قاتلوا » أي ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه ، لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين[١] **﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾** تحريض على قتالهم أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين قوماً نقضوا العهود وطعنوا في دينكم ؟ **﴿وهمُّوا بإخراج الرسول﴾** أي عزموا على تهجير الرسول ﷺ من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجه من بين أظهركم **﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾** أي هم البادئون بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة ، والبادىء أظلم ، فما يمنعكم أن تقاتلوهم ؟ **﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه﴾** ؟ أي أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم ؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** أي إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه قال الزمخشري : يعني أن قضية الإيمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه[٢] .. ثم بعد الحض والحث أمرهم بقتالهم صراحة فقال **﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾** أي قاتلوهم يا معشر المؤمنين فقتالكم لهم عذاب بأيدي أولياء الله وجهاد لمن قاتلهم **﴿ويخزهم﴾** أي يذلهم بالأسر والقهر **﴿وينصركم عليهم﴾** أي يمنحكم الظفر والغلبة عليهم **﴿ويشف صدور قومٍ مؤمنين﴾** أي يشف قلوب المؤمنين بإعلاء دين الله وتعذيب الكفار وخزيهم قال ابن عباس : هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال : أبشروا فإن الفرج قريب[٣] **﴿ويُذهب غيظ قلوبهم﴾** أي يذهب ما بها من غيظ ، وغمٍّ ، وكرب ، وهو كالتأكيد لشفاء الصدور وفائدته المبالغة في جعلهم مسرورين بما يمنّ الله عليهم من تعذيب أعدائهم قال الرازي : أمر تعالى بقتالهم وذكر فيه خمسة أنواع من الفوائد ، كل واحد منها يعظم موقعه إذا انفرد ، فكيف بها إذا اجتمعت[٤] ؟ **﴿ويتوب الله على من يشاء﴾** كلام مستأنف أي يمن الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام كأبي سفيان **﴿والله عليم حكيم﴾** أي عالم بالأسرار لا تخفى عليه خافية ، حكيم لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة قال أبو السعود : ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون ، فكان إخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة[٥] **﴿أم حسبتم أن تُتركوا﴾** أم منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل أحسبتم يا معشر المؤمنين ان تتركوا بغير امتحان وابتلاء يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه ! **﴿ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾** أي والحال أنه لم يتبيّن المجاهد منكم من غيره ، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء فإنه

(١) البيضاوي ص ٢١٩ . (٢) الكشاف ٢/ ٢٥٢ . (٣) أبو السعود ٢/ ٢٥٨ . (٤) الفخر الرازي ١٦/ ٢ . (٥) أبو السعود ٢/ ٢٥٨ .

وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ

تعالى يعلم ذلك غيباً فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل ﴿**ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة**﴾ أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين ، والغرض من الآية : ان الله تعالى لا يترك الناس دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾ أي يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ﴿**ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله**﴾ أي لا يصح ولا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق بالمشركين أن يعمروا شيئاً من المساجد ﴿**شاهدين على أنفسهم بالكفر**﴾ أي حال كونهم مقرين بالكفر ، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم حيث كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك» يعنون الأصنام ، وكانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت ، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام[١] والمعنى : ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين : عمارة مساجد الله ، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿**أولئك حبطت أعمالهم**﴾ أي بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك ﴿**وفي النار هم خالدون**﴾ أي ماكثون في نار جهنم أبداً ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ أي إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن المصدق بوحدانية الله، الموقن بالآخرة ﴿**وأقام الصلاة وآتى الزكاة**﴾ أي أقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها ﴿**ولم يخش إلا الله**﴾ أي خاف الله ولم يرهب أحداً سواه ﴿**فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾ أي فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة قال ابن عباس : كل عسى في القرآن واجبة قال الله لنبيه ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ يقول : إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة[٢] قال أبو حيّان : وعسى من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن ، وفي التعبير بعسى قطع لأطماع المشركين ان يكونوا مهتدين ، إذ من جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من تُرجى له الهداية ، فكيف بمن هو عارٍ منها ؟ وفيه ترجيح الخشية على الرجاء ، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة[٣] ﴿**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله**﴾ الخطاب للمشركين[٤] ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى : أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت ، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله ؟ وهو رد على العباس حين قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة ، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقي

(١) الصاوي على الجلالين ٢/ ١٤١ . (٢) الطبري ١٠/ ٩٤ . (٣) البحر المحيط ٥/ ٢٠ . (٤) انظر سبب النزول .

﴿ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾

الحاج فنزلت قال الطبري : هذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام ، فأعلمهم أن الفخر في الايمان بالله ، واليوم الآخر ، والجهاد في سبيله[١] ﴿لا يستوون عند الله﴾ أي لا يتساوى المشركون بالمؤمنين ، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنازلهم ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق ، قال في البحر : ومعنى الآية إنكار أن يُشبه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، ولما نفى المساواة بينهم أوضحها بأن الكافرين بالله هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بعدم الايمان ، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم ، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة ، ونفاها عن المشركين هنا فقال ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[٢] ثم قال تعالى ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والايمان والمعنى : إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالايمان ، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن ، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً ، وأرفع ذكراً من سقاة الحاج ، وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ أي وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان﴾ أي يبشرهم المولى برحمة عظيمة ، ورضوان كبير من ربٍّ عظيم ﴿وجناتٍ لهم فيها نعيم مقيم﴾ أي وجنات عالية ، قطوفها دانية ، لهم في تلك الجنات نعيم دائم لا زوال له ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين في الجنان إلى ما لا نهاية ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابهم عند الله عظيم ، تعجز العقول عن وصفه قال أبو حيان : لما وصف المؤمنين بثلاث صفات : الايمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة : الرحمة ، الرضوان ، والجنان ، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الايمان ، وثنَّى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد ، وثلَّث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان[٣] وقال الألوسي : ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيمٌ مقيم جاء في غاية اللطافة ، لأن الهجرة فيها السفر ، الذي هو قطعة من العذاب[٤] .

البَلاَغَة : ١ - ﴿براءة من الله ورسوله﴾ التنوين للتفخيم والتقييد بأنها من الله ورسوله لزيادة التفخيم والتهويل .

٢ - ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ هذا يسمى « الأسلوب التهكمي » لأن البشارة بالعذاب

(١) الطبري ١٠/ ٩٤ . (٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠ . (٣) البحر ٥/ ٢١ . (٤) روح المعاني ١٠/ ٧٠ .

تهكم به .

٣ ـ ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ شبّه مضي الأشهر وانقضاءها بالإنسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فهو من باب الاستعارة .

٤ ـ ﴿والله عليم حكيم﴾ ذكر الاسم الجليل مكان الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب .

٥ ـ ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ الجملة مفيدة للحصر أي هم الفائزون لا غيرهم .

٦ ـ ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر تفخيم لشأنهما وحث على التنبه لهما .

٧ ـ ﴿برحمةٍ منه ورضوانٍ﴾ تنكير الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم أي برحمة لا يبلغها وصف واصف .

فَـائِـدَة : عمارة المساجد نوعان : حسية ، ومعنوية ، فالحسية بالتشييد والبناء ، والمعنوية بالصلاة وذكر الله ، وقد ربط الباري جل وعلا بين العمارة والإيمان وفي الحديث (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان لأن الله تعالى يقول ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾[١] فالعمارة الحقيقية بالصلاة وذكر الله .

لطيفَـة : ذكر القرطبي أن أعرابياً قدم المدينة المنورة فقال : من يقرئني مما أنزل على محمدﷺ ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى الآية الكريمة ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ فقرأها عليه بالجرّ ﴿ورسولهِ﴾ فقال الأعرابي : وأنا أيضاً أبرأ من رسوله ، فاستعظم الناس الأمر وبلغ ذلك عمر فدعاه فقال يا أعرابي : أتبرأ من رسول اللهﷺ ؟ فقال يا أمير المؤمنين : قدمت المدينة فأقرأني رجل سورة براءة فقلت إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال : ما هكذا الآية يا أعرابي ؟ قال فكيف يا أمير المؤمنين ! فقرأها عليه بالضم ﴿ورسولُه﴾ فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما بريء الله ورسوله منه ، فأمر عمر ألا يقرىء الناس إلا عالم بلغة العرب[٢] .

* * *

قال الله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء .. إلى .. ولو كره المشركون﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٣٣) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قبائح المشركين ، وأثنى على المهاجرين المؤمنين الذين هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ، حذر هنا من ولاية الكافرين وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأقارب واجب

(١) رواه الترمذي . (٢) القرطبي ٨/ ٢٤ .

بسبب الكفر ، ثم استطرد إلى تذكير المؤمنين بنصرهم في مواطن كثيرة ليعتزوا بدينهم ، ثم عاد إلى الحديث عن قبائح أهل الكتاب للتحذير من موالاتهم ، وأنهم كالمشركين يسعون لإطفاء نور الله .

اللغــة : ﴿أولياء﴾ جمع ولي : وهو الناصر والمعين الذي يتولى شئون الغير وينصره ويقويه ﴿وعشيرتكم﴾ العشيرة : الجماعة التي يعتز ويحتمي بها الإنسان قال الواحدي : عشيرة الرجل أهله الأدنون وهو من العِشرة أي الصحبة لأنها من شأن القربى ﴿كسادها﴾ كسد الشيء كساداً وكسوداً إذا بار ولم يكن له تفاق ﴿عيلة﴾ فقراً يقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر قال الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل[1]

﴿الجزية﴾ ما أخذ من أهل الذمة سميت جزية لأنهم أعطوها جزاء ما مُنحوا من الأمن ﴿يضاهئون﴾ يشابهون والمضاهاة المماثلة والمحاكاة ﴿يؤفكون﴾ يصرفون عن الحق والإفك الصرف يقال : أُفك الرجل أي قلب وصرُف .

سبب النزول : قال الكلبي : لما أُمر رسول الله ﷺ بالهجرة الى المدينة ، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته : لقد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده فيقولون : نشدناك الله إن تدعنا من غير شيء فنضيع ، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزلت الآية تعاتبهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياءَ . .﴾[2] الآية .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾

التفسير : ﴿يـا أيها الذيـن آمنـوا لا تتخذوا آباءكـم وإخوانكم أوليـاء﴾ النداء بلفظ الايمان للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله قال ابن مسعود : « إذا سمعت الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا فأرْعِها سمعك ، فإنه خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه » والمعنى : لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعواناً تودونهم وتحبونهم ﴿إن استحبـوا الكفـر علـى الايمـان﴾ أي إن فضلوا الكفر واختاروه على الايمان وأصروا عليه إصراراً ﴿ومـن يتولهـم منكم فأولئـك هـم الظالمون﴾ قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك[3] ﴿قـل إن كـان آباؤكم وأبناؤكـم وإخوانكـم وأزواجكـم﴾ أي إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والزوجات ومن سواهم ﴿وعشيرتكـم﴾ أي جماعتكم التي تستنصرون بهم ﴿وأمـوال اقترفتمـوهـا﴾ أي وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿وتجـارة تخشـون كسادهـا﴾ أي تخافون عدم نفاقها ﴿ومسـاكـن ترضـونهـا﴾ أي منازل

(١) البحر ٥/ ٤ . (٢) أسباب النزول ص ١٤٠ . (٣) القرطبي ٨/ ٩٤ .

وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ

تعجبكم الإقامة فيها ﴿أحبَّ إليكم من الله ورسوله﴾ هذا هو جواب كان أي إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿وجهادٍ في سبيله﴾ أي وأحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله ﴿فتربصوا﴾ أي انتظروا وهو وعيد شديد وتهديد ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ أي بعقوبته العاجلة أو الآجلة ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق السعادة ، وهذا وعيد لمن آثر أهله ، أو ماله ، أو وطنه ، على الهجرة والجهاد ، ثم ذكرهم تعالى بالنصر على الأعداء في مواطن اللقاء فقال ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ أي نصركم في مشاهد كثيرة ، وحروبٍ عديدة ﴿ويوم حنين﴾ أي ونصركم أيضاً يوم حنين بعد الهزيمة التي منيتم بها بسبب اغتراركم بالكثرة ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغن عنكم شيئاً﴾ أي حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم : لن نغلب اليوم من قلة ، وكنتم اثني عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف ، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم شيئاً ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ أي وضاقت الأرض على رحبها وكثرة اتساعها بكم من شدة الخوف ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي وليتم على أدباركم منهزمين قال الطبري : يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده ، وأنه ليس بكثرة العدد ، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء ، ويخلي القليل فيهزم الكثير ، قيل للبراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال البراء : أشهد أن رسول الله ﷺ لم يفر ، ولقد رأيته على بغلته البيضاء ـ وأبو سفيان آخذ بلجامها يقودها ـ فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال : شاهت الوجوه ففروا ، فما بقي أحد إلا ويمسح القذى عن عينيه[1] ، وقال البراء : كنا والله إذا حميَ البأس نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يحاذيه ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي أنزل بعد الهزيمة الأمن والطمأنينة على المؤمنين حتى سكنت نفوسهم قال أبو السعود : أي أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن إليها[2] ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ قال ابن عباس : يعني الملائكة ﴿وعذّب الذين كفروا﴾ أي بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ أي وذلك عقوبة الكافرين بالله . ﴿ثم يتوبُ

(١) الطبري ١٠/١٠٣ . (٢) أبو السعود ٢/٢٦٣ .

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ﴾

الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ أي يتوب على من يشاء فيوفقه للإسلام ، وهو إشارة إلى إسلام هوازن **﴿والله غفور رحيم﴾** أي عظيم المغفرة واسع الرحمة **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾** أي قذر لخبث باطنهم قال ابن عباس : أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير ، وقال الحسن : من صافح مشركاً فليتوضأ[1] ، والجمهور على أن هذا على التشبيه أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس لخبث اعتقادهم وكفرهم بالله جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في الوصف على حد قولهم : عليٌّ أسدٌ أي كالأسد **﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾** أي فلا يدخلوا الحرم ، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله قال أبو السعود : وقيل : المراد المنع عن الحج والعمرة أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة ويؤيده حديث (وألا يحج بعد هذا العام مشرك)[2] وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة ونادى بها عليٌّ في المواسم **﴿وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله﴾** أي وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً بسبب منعهم من دخول الحرم أو من الحج فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر من فضله وعطائه قال المفسرون : لما مُنع المسلمون من تمكين المشركين من دخول الحرم ، وكان المشركون يجلبون الأطعمة والتجارات اليهم في المواسم ، ألقى الشيطان في قلوبهم الحزن فقال لهم : من أين تأكلون ؟ وكيف تعيشون وقد منعت عنكم الأرزاق والمكاسب ؟ فأمنهم الله من الفقر والعيلة ، ورزقهم الغنائم والجزية[3] **﴿إن شاء﴾** أي يغنيكم بإرادته ومشيئته **﴿إن الله عليم حكيم﴾** قال ابن عباس : عليم بما يصلحكم ، حكيم فيما حكم في المشركين . ولما ذكر حكم المشركين ذكر حكم أهل الكتاب فقال **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾** أي قاتلوا الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله واليوم الآخر وإن زعموا الإيمان ، فإن اليهود يقولون عزير ابن الله ، والنصارى يعتقدون بألوهية المسيح ويقولون بالتثليث **﴿ولا يحرِّمون ما حرم الله ورسوله﴾** أي لا يحرمون ما حرم الله في كتابه ، ولا رسوله في سنته ، بل يأخذون بما شرعه لهم الأحبار والرهبان ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وما شابههما **﴿ولا يدينون دين الحق﴾** أي لا يعتقدون بدين الإسلام الذي هو دين الحق **﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾** هذا بيان للمذكورين أي من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل

(١) القرطبي ١٠٣/٨ وهو الذي نقل عن ابن عباس والحسن البصري ورجحه الفخر الرازي والألوسي وهو ظاهر الآية ، والجمهور على أنه على التشبيه . (٢) أبو السعود ٢٦٤/٢ . (٣) انظر الطبري ١٠٧/١٠ .

صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

﴿حتى يُعطوا الجزية عن يد﴾ أي حتى يدفعوا إليكم الجزية منقادين مستسلمين ﴿وهم صاغرون﴾ أي أذلاء حقيرون مقهورون بسلطان الإسلام ، ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائحهم فقال ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ أي نسب اللعناء إلى الله الولد ، وهو واحد أحد فرد صمد قال البيضاوي : وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة ، فلما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله[1] ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ أي وزعم النصارى ـ أعداء الله ـ أن المسيح ابن الله قالوا : لأن عيسى ولد بدون أب ، ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب ، فلا بد أن يكون ابن الله ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ أي ذلك القول الشنيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان قال في التسهيل : يتضمن معنيين : أحدهما إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك ، والثاني أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وإنما هو مجرد دعوى كقولك لمن تكذبه : هذا قولك بلسانك[2] ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾ أي يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم : الملائكة بنات الله ﴿تشابهت قلوبهم﴾ ﴿قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف يُصرفون عن الحق الى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً ! قال الرازي : الصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطباتهم ، والله تعالى عجَّب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل[3] ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ أي أطاع اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم في التحليل والتحريم وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله والمعنى : أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ قال عدي ابن حاتم : أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي إطرح عنك هذا الوثن ، قال وسمعته يقرأ سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقلت يا رسول الله : لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه السلام : أليس يحُرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فيستحلون ؟ ! فقلت : بلى ، قال : فذلك عبادتهم[4] ﴿والمسيح ابن مريم﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا على لسان الأنبياء إلا بعبادة إله واحد هو الله رب العالمين ﴿لا إله إلا هو﴾ لا معبود بحق سواه ﴿سبحانه عما يشركون﴾ أي تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم

(١) البيضاوي ص ٢٢٢ . (٢) التسهيل ٢/ ٧٤ . (٣) الرازي ١٦/ ٣٦ . (٤) الألوسي ١٠/ ٨٤ .

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾

الحقيرة ، بمجرد جدالهم وافترائهم ، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه بفمه ولا سبيل إلى ذلك ﴿ويأبى الله إلا أن يُتم نوره﴾ أي ويأبى الله إلا أن يعليه ويرفع شأنه ﴿ولو كره الكافرون﴾ أي ولو كره الكافرون ذلك ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة والدين الكامل وهو الإسلام ﴿ليُظهره على الدين كله﴾ أي ليعليه على سائر الأديان ﴿ولو كره المشركون﴾ جوابه محذوف أي ولو كره المشركون ظهوره .

البَلاَغَة : ١ - ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ صيغته أمر وحقيقته وعيد كقوله ﴿ إعملوا ما شئتم﴾ .

٢ - ﴿ويوم حنين﴾ من باب عطف الخاص على العام للتنويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة .

٣ - ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ﴾ شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي بضيق الأرض على سعتها على سبيل الاستعارة .

٤ - ﴿إنما المشركون نجس﴾ الصيغة لإفادة الحصر واللفظ فيه تشبيه بليغ أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً ومثله ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾ أي كالأرباب في طاعتهم وامتثال أوامرهم في التحريم والتحليل .

٥ - ﴿فلا يقربوا المسجد﴾ عبَّر عن الدخول بالقرب للمبالغة .

٦ - ﴿يطفئوا نور الله﴾ أراد به نور الإسلام فإن الإسلام بنوره المضيء وحججه القاطعة يشبه الشمس الساطعة في نورها وضيائها فهو من باب الاستعارة . وهي من لطائف الاستعارات .

لَطِيفَة : قال العلامة القرطبي دل قوله تعالى ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ على أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان ، وقد أنشدوا في ذلك أبياتاً :

يقولون لي دار الأحبة قد دنت ... وأنت كئيبٌ إن ذا لعجيب
فقلت : وما تغني ديارٌ قريبة ... إذا لم يكن بين القلوب قريب

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأحبار والرهبان . . إلى . . في ريبهم يترددون﴾ من آية (٣٤) إلى نهاية آية (٤٥) .

المناسبة : لما وصف تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية ، وصفهم هنا بالطمع والجشع والحرص على أكل أموال الناس ، تحقيراً لشأنهم وتسفيهاً لأحلامهم ، لأنهم اتخذوا الدين مطية لنيل الدنيا ، وذلك نهاية الذل والدناءة ، ثم ذكر تعالى قبائحهم وقبائح المشركين ، ثم دعا إلى النفير العام وذكر موقف المنافقين المثبطين عن الجهاد في سبيل الله .

اللغة : ﴿الأحبار﴾ علماء اليهود ﴿الرهبان﴾ علماء النصارى قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوءٍ ورهبانها[1]

﴿يكنزون﴾ أصل الكنز في اللغة : الجمع والضم ومنه حديث (ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة) أي يضمه لنفسه ويجمعه ، ثم غلب استعماله على المدفون من الذهب والفضة قال الطبري : الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها[2] ﴿تكوى﴾ الكي : إلصاق المحمي من الحديد وشبهه بالعضو حتى يتمزق الجلد وفي الأمثال « آخر الدواء الكي » ﴿النسيء﴾ التأخير يقال : نسأه وأنسأه إذا أخره ومنه حديث (وينسأ له في أثره) أي يؤخر له في أجله قال الزمخشري : النسيء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ﴿ليواطئوا﴾ أي ليوافقوا والمواطأة : الموافقة يقال : تواطأ القوم : إذا اتفقوا على أمر خفية ﴿انفروا﴾ النفر : الخروج بسرعة ومنه﴿ولَّوا على أدبارهم نفوراً ﴾﴿اثَّاقلتم﴾ أصله تثاقلتم بمعنى تباطأتم ولم تسرعوا ﴿عرضاً﴾ العرض : ما يعرض للانسان من منافع الدنيا سمي عرضاً لأنه لا يدوم وفي الحديث (الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر) ﴿الشقة﴾ المسافة البعيدة التي لا تقطع إلا بمشقة قال الجوهري : الشقة السفر البعيد[3] ، وكأنه مأخوذ من المشقة يقال : شقة شاقة .

سبب النزول : لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف وغزوة حنين ، أمر الناس بالجهاد ، لغزو الروم ، وذلك في زمن عسرة من البأس ، وجدبٍ من البلاد ، وشدةٍ من الحر ، حين أثمرت النخل ، وطابت الثمار ، فعظم على الناس غزو الروم ، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال ، وشق عليهم الخروج إلى القتال فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض . .﴾ الآية[4] .

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأحبار والرهبان﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن كثيرا من علماء اليهود « الأحبار » وعلماء النصارى « الرهبان » ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ أي ليأخذون أموال الناس بالحرام ، ويمنعونهم عن الدخول في دين

(١) القرطبي ٨/ ١٢٠ . (٢) الطبري ١/ ١٢١ . (٣) القرطبي ٨/ ١٥٤ . (٤) أسباب النزول للواحدي ص ١٤١ .

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾

الإسلام قال ابن كثير : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال قال ابن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا كان في شبه من النصارى[١] ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ أي يجمعون الأموال ويدخرون الثروات ﴿ثم لا ينفقونها في سبيل الله﴾ أي لا يؤدون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير قال ابن عمر : الكنز ما لم تُؤد زكاته ، وما أديت زكاته فليس بكنز ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أسلوب تهكم أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم قال الزمخشري : وإنما قرن بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله ، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم[٢] ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم﴾ أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية ﴿فتكوى بها جباهُهم وجنوبهُم وظهورهم﴾ أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها قال ابن مسعود : والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار ديناراً ، ولا درهم درهماً ، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته[٣] ، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادماً فيقطب جبهته ، فإذا جاءه أعرض بجانبه ، فإذا طالبه بإحسان ولاه ظهره ، قال القرطبي : الكي في الوجه أشهر وأشنع ، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع ، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء[٤] ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً : هذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنتم تكنزونه وفي صحيح مسلم (ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار ، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين الف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما الى النار) ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ أي إن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه هي اثنا عشرشهراً على منازل القمر ، فالمعتبر به الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿في كتاب الله﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ قال ابن عباس : كتبه يوم خلق السموات والأرض في الكتاب الإمام الذي عند الله ﴿منها أربعة حرم﴾ أي منها أربعة شهور محرمة هي : « ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب » وسميت حرماً لأنها معظمة محترمة تتضاعف فيها الطاعات ويحرم القتال فيها ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي ذلك

---

(١) المختصر ٢/ ١٣٨ . (٢) الكشاف ٢/ ٢٦٦ . (٣) الطبري ١٠/ ١٢٤ . (٤) القرطبي ٨/ ١٢٩ .

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ﴾

الشرع المستقيم ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ أي لا تظلموا في هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أي قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي معهم بالنصرة والتأييد ، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ أي إنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم قال المفسرون : كان العرب أهل حروب وغارات ، وكان القتال محرماً عليهم في الأشهر الحرم ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ، كأنهم يستقرضون حرمة شهر لشهر غيره ، فربما أحلوا المحرم وحرموا صفر حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرمة ﴿يضلُّ به الذين كفروا﴾ أي يضل بسببه الكافرين ضلالاً على ضلالهم ﴿يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾ أي يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً فيجعلون هذا مكان هذا والعكس ﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ أي ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة ﴿فيحلوا ما حرم الله﴾ أي فيستحلوا بذلك ما حرمه الله قال مجاهد : كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له ، فيقول أيها الناس : إني لا أعاب ولا أجاب ، ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمنا المحرم ، وأخرنا صفر ، ثم يجيء العام المقبل ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فذلك قوله تعالى ﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾[1] . ﴿زُين لهم سوء أعمالهم﴾ أي زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي لا يرشدهم إلى طريق السعادة ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك والمعنى : ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم ، وملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ؟ ! ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي ؟ ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء مستحقر قليل لا قيمة له ، ثم توعَّدهم على ترك الجهاد فقال ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ أي إن لا تخرجوا إلى الجهاد

(١) الطبري ١٠/ ١٣٤ .

﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

مع رسول الله يعذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً ، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا ، وبالنار المحرقة في الآخرة وقال ابن عباس : هو حبس المطر عنهم[1] ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي يهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منكم ، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأطوع ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد فإنه سبحانه غني عن العالمين ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء بدونكم قال الرازي : وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز، فإذا توعد بالعقاب فعل[2] ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ أي إن لا تنصروا رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره : فسينصره الله دل عليه قوله ﴿فقد نصره الله﴾ والمعنى : إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين ، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ أي حين خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ، وأسند إخراجه إلى الكفار لأنهم ألجئوه إلى الخروج وتآمروا على قتله حتى اضطر إلى الهجرة ﴿ثاني اثنين﴾ أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصديق ﴿إذ هما في الغار﴾ أي حين كان هو والصديق مختبئين في النقب في جبل ثور ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ أي حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصديق تطميناً وتطييباً : لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر ، روى الطبري عن أنس أن أبا بكر رضي الله عنه قال « بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار ، وأقدام المشركين فوق رءوسنا فقلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »[3] وكان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله ﷺ فنهاه الرسول تسكيناً لقلبه ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي أنزل الله السكون والطمأنينة على رسوله ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ أي قواه بجنود من عنده من الملائكة يحرسونه في الغار لم تروها أنتم ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي جعل كلمة الشرك سافلة دنيئة حقيرة ، أذل بها الشرك والمشركين ﴿وكلمةُ الله هي العليا﴾ أي وكلمة التوحيد « لا إله إلا الله » هي الغالبة الظاهرة ، أعزَّ الله بها المسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي قاهر غالب لا يُغلب ، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي اخرجوا للقتال يا معشر المؤمنين شيباً وشباناً ، مُشاةً وركباناً ، في جميع الظروف والأحوال في اليسر والعسر ، والمنشط والمكره

(١) الطبري ١٠/ ١٣١ . (٢) الرازي ١٦/ ٦١ . (٣) الطبري ١٠/ ١٣٦ .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

﴿ وجاهِدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي جاهدوا بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي هذا النفير والجهاد خير من التثاقل إلى الأرض والخلود إليها والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا إن كنتم تعلمون ذلك قال في البحر : والخيرية في الدنيا بغلبة العدو ووراثة الأرض ، وفي الآخرة بالثواب العظيم ورضوان الله[١] ، ثم ذكر تعالى أحوال المخلفين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وموقف المثبطين المنافقين منهم فقال ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ أي لو كان ما دعوا إليه غُنماً قريباً سهل المنال ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي وسفراً وسطاً ليس ببعيد ﴿لاتبعوك﴾ أي لخرجوا معك لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة ﴿ولكن بعُدت عليهم الشقة﴾ أي ولكن بعدت عليهم الطريق والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي وسيحلفون لكم معتذرين[٢] بأعذار كاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا ، ولو كان لنا سعة في المال او قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم ، قال تعالى رداً عليهم وتكذيباً لهم ﴿يُهلكون أنفسهم﴾ أي يوقعون أنفسهم في الهلاك بأيمانهم الكاذبة ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ أي لكاذبون في دعواهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهمْ﴾ تلطف في عتاب الرسول ﷺ حيث قدم العفو على العتاب إكراماً له عليه السلام[٣] والمعنى سامحك الله يا محمد لم أذنت لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار ! ! ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ أي وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الكاذب المنافق قال مجاهد : نزلت في المنافقين قال أناس منهم استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا[٤] ، فقد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم ، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه أهل الإيمان فقال ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي لا يستأذنك يا محمد عن الجهاد والغزو من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ أي كراهية الجهاد بالمال

(١) البحر ٥/ ٤٤ . (٢) هذا إخبار بغيب أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين بهذه الأيمان الكاذبة وقد حصل كما أخبر القرآن فكان ذلك من أوضح المعجزات القرآنية . (٣) قال المفسرون : من هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول ﷺ عند ربه ، وعلو قدره ، وسمو منزلته ، بشره بالعفو قبل ان يخبره بالذنب ، ولو قال له معاتباً : لم أذنت لهم ؟ لخيف عليه أن ينشق قلبه حزناً وكمداً قال عون : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبة ، أقول : وما ذكره الزمخشري سوء أدب في مقام الرسول ﷺ . (٤) الطبري ١١/ ١٤٢ .

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

والنفس لأنهم يعلمون ما أعده الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلفون عنه ؟ ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي عليم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان متقون للرحمن ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي إنما يستأذنك يا محمد المنافقون الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ أي شكّت قلوبهم في الله وثوابه فهم يترددون حيارى لا يدرون ما يصنعون .

البَلَاغَة : ١ ـ ﴿يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾ بين يحلون ويحرمون طباق وهو من المحسنات البديعية .

٢ ـ ﴿ما لكم إذا قيل لكم﴾ استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ .

٣ ـ ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أرضيتم بنعيم الدنيا ولذائذها بدل نعيم الآخرة .

٤ ـ ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها بالنسبة للآخرة .

٥ ـ ﴿يعذبكم عذاباً﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ ـ ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ « كلمة الذين كفروا » استعارة عن الشرك كما أن « كلمة الله » استعارة عن الإيمان والتوحيد .

٧ ـ ﴿خفافاً وثقالاً﴾ بينهما طباق .

٨ ـ ﴿بعُدت عليهم الشُقة﴾ استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على النفس .

٩ ـ ﴿عفا الله عنك﴾ خبر بقصد تقديم المسرة على المضرة وقد أحسن من قال : إن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب .

فَائِدَة : روي أن اعرابياً قال لابن عمر : أخبرني عن قول الله تعالى ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ فقال ابن عمر : من كنزها فلم يؤدّ زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهرةً للأموال ، وما أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً أزكيه ، وأعمل فيه بطاعة الله تعالى[1] ! !

---

(١) رواه ابن ماجه .

تـنبيـه : دلت الآية ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن﴾ على عظيم فضل الصديق وجليل قدره ، إذ جعله الله صاحب الرسول في الغار ، ورفيقه في الهجرة ، ولهذا قال العلماء : من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لأنه رد كتاب الله تعالى .

لطيفـة : عن حيان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ، فرأيت شيخاً كبيراً هرماً ، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت عليه فقلت : يا عم لقد أعذر الله إليك قال : فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي : استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ، ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده الله فيبقيه ، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل[1] .

أقول : رحم الله تلك الأنفس الزكية التي باعت أرواحها في مرضاة الله تعالى .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدّة . . إلى . . والله عليم حكيم﴾ من آية (٤٦) إلى نهاية آية (٦٠) .

المنـاسـبة : لما ذكر تعالى المنافقين وتباطؤهم عن الخروج للجهاد ، ذكر هنا بعض أعمالهم القبيحة من الكيد ، والمكر ، وإثارة الفتن بين المسلمين ، والفرح بأذاهم . وذكر تعالى أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلا ضعفاً وانحداراً بتفريق الجماعة وتشتيت الكلمة ، وذكر كثيراً من مثالبهم وجرائمهم الشنيعة .

اللغـة : ﴿انبعاثهم﴾ الانبعاث : الانطلاق في الأمر ﴿فثبطهم﴾ التثبيط : رد الإنسان عن الفعل الذي همَّ به ﴿خبالاً﴾ الخبال : الشر والفساد في كل شيء ومنه المخبول للمعتوه الذي فسد عقله ﴿ولأوضعوا﴾ الإيضاع : سرعة السير قال الراجز :

يا ليتني فيها جذع أخبُّ فيها وأضع

يقال : وضع البعير إذا أسرع السير ، وأوضع الرجل إذا سار بنفسه سيراً حثيثاً[2] ﴿يجمحون﴾ جمح : نفر بإسراع من قولهم فرس جموح أي لا يرده اللجام ﴿يلمزك﴾ اللمز : العيب يقال : لمزه إذا عابه قال الجوهري : وأصله الإشارة بالعين ونحوها ورجل لُماز أي عيَّاب[3] ﴿الغارمين﴾ الغارم : المديون قال الزجاج : أصل الغرم لزوم ما يشق ، والغرام العذاب اللازم الشاق وسمي العشق غراماً لكونه أمراً شاقاً ولازماً ، وسمي الدين غراماً لكونه شاقاً على الإنسان[4] .

سبب النزول : لما أراد ﷺ الخروج إلى تبوك قال « للجد بن قيس » ـ وكان منافقاً ـ يا أبا وهب : هل لك في جِلاد بني الأصفر ـ يعني الروم ـ تتخذ منهم سراري ووصفاء ؟ فقال يا رسول الله : لقد عرف قومي أني مغرم بالنساء ، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهن فلا تفتني وأْذَنْ لي في القعود

(١) الطبري ١٠/١٣٨ . (٢) الرازي ١٦/ ٨١ . (٣) الصحاح للجوهري . (٤) البحر ٥/ ٣٥ .

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾

وأعينك بمالي ، فأعرض عنه النبي ﷺ وقال : قد أذنت لك فأنزل الله ﴿ومنهم من يقول أئذن لي ولا تفتني﴾[1] الآية .

التفسير : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدة﴾ أي ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلاح والزاد ، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي ولكن كره الله خروجهم معك ﴿فثبطهم﴾ أي كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ أي اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعذار ، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج للجهاد ، والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة بل فيه الأذى والمضرة ولهذا قال ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم ﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾ أي وفيكم ضعفاء قلوب يصغون إلى قولهم ويطيعونهم[2] ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بالمنافقين علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي طلبوا لك الشر بتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم أحد ﴿ وقلّبوا لك الأمور﴾ أي دبروا لك المكايد والحيل وأداروا الآراء في إبطال دينك ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله﴾ أي حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان ﴿وهم كارهون﴾ أي والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج قال ابن عباس : نزلت في « الجد ابن قيس » حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاد بني الأصفر ، فقال يا رسول الله : ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء[3] ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه ، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم قال أبو السعود : وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفصحة عن ترديهم في دركات الردى

---

(١) أسباب النزول ص ١٤٢ . (٢) وقال مجاهد : المعنى وفيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم ، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر ، وإليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير . (٣) انظر سبب النزول .

﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾

أسفل سافلين[1] ﴿وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، وفيه وعيد شديد ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة ، سواء كانت ظفراً أو غنيمة ، يسؤهم ذلك ﴿وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ أي وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ، أو هزيمة ومكروه يفرحوا به ويقولوا : قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر والتيقظ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحل بنا البلاء ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ أي وينصرفوا عن مجتمعهم وهم فرحون مسرورون[2] ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر ، ولا خوف ولا رجاء ، ولا شدة ولا رخاء ، إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله ﴿هو مولانا﴾ أي ناصرنا وحافظنا ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله ، ولا يعتمدوا على أحد سواه ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ أي قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين : إما النصر ، وإما الشهادة ، وكل واحدة منهما شيء حسن ! ! ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا﴾ أي ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين : أن يهلككم الله بعذابٍ من عنده يستأصل به شأفتكم ، أو يقتلكم بأيدينا ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ أي انتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم ، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ أي قل لهم انفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكرهين، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم قال الطبري: وهو أمر معناه الخبر كقوله ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ والمعنى لن يُتقبل منكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً[3] ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ تعليل لرد إنفاقهم أي لأنكم كنتم عتاة متمردين خارجين عن طاعة الله ، ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي وما منع من قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله ورسوله ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى﴾ أي ولا يأتون إلى الصلاة إلا وهم متثاقلون ﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ أي ولا ينفقون

(١) أبو السعود ٢/ ٢٧٥ . (٢) قال القرطبي : المعنى يعرضوا عن الإيمان وهم معجبون بذلك . (٣) الطبري ١٠/ ١٥٢ .

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أموالهم إلا بالإكراه لأنهم يعدونها مغرماً قال في البحر : ذكر تعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر واتبعه بما هو مستلزم له وهو إتيانهم الصلاة كسالى ، وإيتاء النفقة وهم كارهون ، لأنهم لا يرجون بذلك ثواباً ولا يخافون عقاباً ، وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما : الصلاة ، والنفقة ، لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية ، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية[1] ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ أي لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا ، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد ، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة ، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا قال البيضاوي : وعذابهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب[2] ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي ويموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ أي ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم ، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين ، فيظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ﴿لو يجدون ملجأً﴾ أي حصناً يلجأون إليه ﴿أو مغارات﴾ أي سراديب يختفون فيها ﴿أو مدخلاً﴾ أي مكاناً يدخلون فيه ولو ضيقاً ﴿لَوَلَّوْا إليه وهم يجمحون﴾ أي لأقبلوا إليه يسرعون إسراعاً كالفرس الجموح ، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أنَّ المنافقين لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا لشدة بغضهم لكم فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة أنهم معكم ومنكم ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ أي ومنهم من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات ﴿فإن أعطوا منها رضوا﴾ أي فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنوا فعلك ﴿وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ أي وإن لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين يقال له « ذو الخويصرة » فقال : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال ﷺ : (ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟)[3] ، الحديث ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي ولو أن هؤلاء الذين عابوك يا محمد رضوا بما أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإن قلَّت قال أبو السعود : وذكرُ اللهِ عز وجل للتعظيم

---

(١) البحر المحيط ٥/٥٣ . (٢) البيضاوي ص ٢٢٦ . (٣) روح المعاني ١٠/ ١١٩ .

* إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه[١] ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي كفانا فضل الله وإنعامه علينا ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسولُه﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيراً وأكثر مما آتانا ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ أي إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم قال الرازي : وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل وهو كقولك للرجل : لو جئتنا . . ثم لم تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً[٢] ، ثم ذكر تعالى مصرف الصدقات فقال ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ قال الطبري : أي لا تنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن سماهم الله جل ثناؤه[٣] والآية تقتضي حصر الصدقات وهي الزكاة في هذه الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم ، والفقير الذي له بُلْغة من العيش ، والمسكين الذي لا شيء له قال يونس : سألت اعرابياً أفقير أنت ؟ فقال : لا والله بل مسكين ، وقيل : المسكين أحسن حالاً من الفقير ، والمسألة خلافية ﴿والعاملين عليها﴾ أي الجباة الذين يجمعون الصدقات ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ هم قوم من أشراف العرب أعطاهم ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام ، وروى الطبري عن صفوان بن أمية قال : لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي[٤] ﴿وفي الرقاب﴾ أي وفي فك الرقاب لتخليصهم من الرق ﴿والغارمين﴾ أي المديونين الذين أثقلهم الدين ﴿وفي سبيل الله﴾ أي المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد ﴿وابن السبيل﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فريضةً من الله﴾ أي فرضها الله جل وعلا وحددها ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمصالح العباد ، حكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة قال في التسهيل : وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه في المعنى بآية اللمز في الصدقات[٥] .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿أعدوا له عُدة﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في قوله ﴿اقعدوا مع القاعدين﴾ .

٢ ـ ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ قال الطيبي : فيه استعارة تبعية حيث شبه سرعة إفسادهم ذات البين بالنميمة بسرعة سير الراكب ثم استعير لها الإيضاع وهو للإبل ، والأصل ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم[٦] .

---

(١) أبو السعود ٢/ ٢٧٧ . (٢) الرازي١٦/ ٩٩ . (٣) الطبري ١٠/ ١٥٧ .
(٤) الطبري ١٠/ ١٦٢ . (٥) التسهيل ٢/ ٧٩ . (٦) روح المعاني ١٠/ ١١٢ .

٣ ـ ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ فيه استعارة حيث شبه وقوعهم في جهنم بإحاطة العدو بالجند أو السوار بالمعصم ، وإيثار الجملة الإسمية للدلالة على الثبات والاستمرار .

٤ ـ ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة . .﴾ الآية فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٥ ـ ﴿وعلى الله فليتوكل﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر ، وإظهار الاسم الجليل مكان الاضمار لتربية الروعة والمهابة .

٦ ـ ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ بينهما طباق وكذلك بين الرضا والسخط في قوله ﴿رضوا وإن لم يُعطوا إذا هم يسخطون﴾ .

٧ ـ ﴿عليم حكيم﴾ صيغة فعيل للمبالغة أي عظيم العلم والحكمة .

لطيفة : قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ هذا ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت[١] على حد قول القائل :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

تنبيه : قال ابن كثير : لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوسٍ واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال ابن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه ـ يعني أقبل ـ فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله ، أغاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى ﴿وظهر أمر الله وهم كارهون﴾[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي . . إلى . . من وليٍ ولا نصير﴾
من آية (٦١) إلى نهاية آية (٧٤) .

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين توضيحاً لخطرهم ، وتحذيراً للمؤمنين من مكائدهم ، وفي هذه الآيات ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائحهم ، وهو إيذاؤهم للرسول ﷺ ، وإقدامهم على الأيمان الكاذبة ، واستهزاؤهم بآيات الله وشريعته المطهرة ، إلى غير ما هنالك من الأعمال المنكرة ، والأفعال الخبيثة .

اللغة : ﴿أُذُن﴾ قال الجوهري : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوي فيه الواحد والجمع[٣] وقال الزمخشري : الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد ،

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٦ . (٢) المختصر ٢/ ١٤٧ . (٣) الصحاح للجوهري .

سمي بالجارحة التي هي آلة السماع[1] . قال الشاعر :

قد صرت أذناً للوشاة سميعة ... ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا

﴿يحادد﴾ المحادة : المخالفة والمعاداة كالمشاقة وهي أن يكون كل واحد من المتخاصمين في حد وشق غير ما عليه صاحبه ﴿بخلاقهم﴾ الخلاق : النصيب كقوله ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ وقد تقدم ﴿وخضتم﴾ الخوض : الدخول في اللهو والباطل وهو مستعار من الخوض في الماء ﴿حبطت﴾ بطلت وذهب ثوابها ﴿والمؤتفكات﴾ الائتفاك : الانقلاب ويراد بهم قوم لوط لأن أرضهم ائتكفت بهم أي انقلبت ، وقيل هو مجاز عن انقلاب حالها من الخير إلى الشر كقول ابن الرومي :

وما الخسف أن تلقى أسافل بلدة ... أعاليها بل أن تسود الأراذل

سَبَبُ النّزول : أ - كان جماعة من المنافقين يؤذون رسول الله ويقولون فيه ما لا ينبغي ، فقال بعضهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا ، فقال « الجلاس بن سويد » : نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذُن . .﴾[2] .

ب - قال مجاهد : كان المنافقون يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي سرنا فأنزل الله ﴿يحذر المنافقون أن تُنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . .﴾[3] الآية .

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن

التفسِير : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي﴾ أي ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ﴿ويقولون هو أُذُن﴾ أي يصدّق بكل خبرٍ يسمعه ﴿قل أُذُن خير لكم﴾ أي هو أذن خير لا أذن شر ، يسمع الخير فيعمل به ، ولا يعمل بالشر إذا سمعه ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي يصدِّق الله فيما يقول ، ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ أي والذين يعيبون الرسول ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف لهم عذاب موجع في الآخرة ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا شيئاً فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان ﴿والله ورسوله أحق أن يُرضوه﴾ أي والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء ، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة ، والمتابعة ، وتعظيم أمره عليه السلام ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ أي إن كانوا حقاً مؤمنين فليرضوا

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٤ . (٢) أسباب النزول ص ١٤٣ . (٣) زاد المسير ٣/ ٤٦٣ .

يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ

الله ورسوله ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول ، والاستفهام للتوبيخ ﴿فأن له نار جهنم خالداً فيها﴾ أي فقد حق دخوله جهنم وخلوده فيها ﴿ذلك الخزي العظيم﴾ . أي ذلك هو الذل العظيم ، والشقاء الكبير ، المقرون بالفضيحة حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد ﴿يحذر المنافقون أن تُنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿قل استهزئوا﴾ أي استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد كقوله ﴿إعملوا ما شئتم﴾ ﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ أي مظهر ما تخفونه وتحذرون ظهوره من النفاق ، قال الزمخشري : كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي ، حتى قال بعضهم : والله لا أرانا إلا شر خلق الله ، ولوددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا[1] ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب ، في حقك وفي حق الإسلام ، ليقولون لك ما كنا جادين ، وإنما كنا نمزح ونلعب للترويح عن النفس قال الطبري : بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات ! ! فأطلع الله نبيه فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله : إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت[2] ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ أي قل لهؤلاء المنافقين : أتستهزئون بدين الله وشرعه ، وكتابه ورسوله ؟ والاستفهام للتوبيخ ، ثم كشف تعالى أمرهم وفضح حالهم فقال ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي لا تعتذروا بتلك الأيمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور أمركم ، فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول بعد إظهاركم الايمان ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ أي إن نعف عن فريقٍ منكم لتوبتهم وإخلاصهم ﴿نعذب طائفةً بأنهم كانوا مجرمين﴾ أي نعذب فريقاً آخر لأنهم أصروا على النفاق والإجرام ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أي المنافقون والمنافقات صنف واحد ، وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الايمان ، كتشابه أجزاء الشيء الواحد قال في

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٦ . (٢) هذه رواية قتادة كذا في الطبري .

فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

الكشاف : وأريد بقوله ﴿بعضهم من بعض﴾ نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾[1] ثم وصفهم بما يدل على مخالفة حالهم لحال المؤمنين فقال ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ أي يأمرون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعة ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي يمسكون أيديهم عن الانفاق في سبيل الله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ أي تركوا طاعته فتركهم من رحمته وفضله وجعلهم كالمنسيين ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ أي الكاملون في التمرد والعصيان ، والخروج عن طاعة الرحمن ، وكفى به زجراً لأهل النفاق ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم﴾ أي وعد الله المنافقين والمتجاهرين بالكفر بإصلائهم في نار جهنم ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿هي حسبهم﴾ أي هي كفايتهم في العذاب ، إذ ليس هناك عذاب يعادلها ﴿ولعنهم الله﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم لا ينقطع ﴿كالذين من قبلكم﴾ أي حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ أي كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي وكانوا أوفر أموالاً ، وأكثر أولاداً ، ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾ أي تمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا ﴿فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبهم منها ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي وخضتم في الباطل والضلال كما خاضوا هم فيه قال الطبري : المعنى سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم ، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم ، فاحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم[2] ﴿أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلا النار ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ أي وأولئك هم الكاملون في الخسران ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم﴾ أي ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حلَّ

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٧ . (٢) الطبري ١٠/ ١٧٥ .

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ

بهم من العقوبة ؟ ﴿قوم نوحٍ وعادٍ وثمود﴾ أي قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان وقوم هود « عاد » الذين أهلكوا بالريح ، وقوم صالح « ثمود » الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وقوم إبراهيم﴾ الذين أهلكوا بسلب النعمة ﴿وأصحاب مدين﴾ قوم شعيب الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿والمؤتفكات﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات فكذبوهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي فما أهلكهم الله ظلماً إنما أهلكهم بإجرامهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي ، أفأمن هؤلاء المنافقون أن يُسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجرام ؟ ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم إخوة في الدين يتناصرون ويتعاضدون ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أي يأمرون الناس بكل خيرٍ وجميلٍ يرضي الله ، وينهونهم عن كل قبيح يسخط الله ، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الكامل ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يُعطونها إلى مستحقيها ابتغاء وجه الله ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ أي في كل أمر ونهي ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾ أي سيدخلهم في رحمته ، ويفيض عليهم جلائل نعمته ﴿إن الله عزيز﴾ أي غالب لا يُغلب من أطاعه ويذل من عصاه ﴿حكيم﴾ أي يضع كل شيء في موضعه على أساس الحكمة ، في النعمة والنقمة ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ أي وعدهم على إيمانهم بجنات وارفة الظلال ، تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي لابثين فيها أبداً ، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد ﴿ومساكن طيبةً في جنات عدن﴾ أي ومنازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والاقامة قال الحسن : هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد[1] ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أي وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله ، وفي الحديث يقول الله تعالى لأهل الجنة : « يا أهل الجنة فيقولون :لبيك ربنا وسعديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك ! فيقول : أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[2] ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الظفر

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٩ . (٢) الطبري ١٠/ ١٨٢ والحديث في الصحاح .

﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

العظيم الذي لا سعادة بعده ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال ابن عباس : جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ﴿واغلظ عليهم﴾ أي اشدد عليهم بالجهاد والقتال والارعاب ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مسكنهم ومثواهم جهنم ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المكان الذي يصار إليه جهنم ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ أي يحلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من السب قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أُبي ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهني وانصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال ابن سلول للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك » فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية[1] ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ هي قول ابن سلول « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قال ابن كثير : هم نفر من المنافقين همّوا بالفتك بالنبي ﷺ عند عودته من تبوك وكانوا بضعة عشر رجلاً ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي ما عابوا على الرسول وما له عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ، ويُمْن سعادته ، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب . . ثم دعاهم تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ أي فإن يتوبوا عن النفاق يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم وأفضل ﴿وإن يتولوا﴾ أي يعرضوا ويصروا على النفاق ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً﴾ أي يعذبهم عذاباً شديداً ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار ﴿وما لهم في الأرض من وليٍّ ولا نصير﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من العذاب ، أو يشفع لهم فيخلصهم وينجيهم يوم الحساب .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿هو أذن﴾ أصله هو كالأذن يسمع كل ما يقال له ، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فصار تشبيهاً بليغاً مثل زيد أسد .

٢ ـ ﴿يؤذون رسول الله﴾ أبرز اسم الرسول ولم يأت به ضميراً ﴿يؤذونه﴾ تعظيماً لشأنه عليه السلام وجمعاً له بين الرتبتين العظيمتين « النبوة والرسالة » وإضافته إليه زيادة في التكريم والتشريف[2] .

٣ ـ ﴿ذلك الخزي العظيم﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب للإيذان ببعد درجته في الهول والفظاعة .

---

(١) محاسن التأويل ٨/ ٣٢٠٤ .

(٢) أفاده في البحر ٥/ ٦٣ .

٤ ـ ﴿ويقبضون أيديهم﴾ قبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود والكرم .

٥ ـ ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ من باب المشاكلة لأن الله لا ينسى أي تركوا طاعته فتركهم تعالى من رحمته .

٦ ـ ﴿كالذين من قبلكم﴾ إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التقريع والعتاب .

٧ ـ ﴿فاستمتعوا بخلاقهم . .﴾ الآية فيه إطناب والغرض منه الذم والتوبيخ لاشتغالهم بالمتاع الخسيس ، عن الشيء النفيس .

٨ ـ ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله . .﴾ في الآية تأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول القائل « ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم » البيت .

فَائِدَة : روى ابن كثير عن علي كرم الله وجهه قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ وسيف لأهل الكتاب ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . .﴾ وسيفٍ للمنافقين ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ وسيف للبغاة ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾[١] .

لَطِيفَة : قال الإمام الفخر : لما وصف تعالى المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض ، ذكر بعده خمسة أمور بها يتميز المؤمن ، عن المنافق ، فالمنافق يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ، ولا يقوم إلى الصلاة إلا بكسل ، ويبخل بالزكاة وسائر الواجبات ، وإذا أُمر بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف ويثبط غيره ، والمؤمن بالضد منه فإنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويؤدي الصلاة على الوجه الأكمل ، ويؤتي الزكاة ، ويسارع إلى طاعة الله ورسوله ، ولهذا قابل تعالى بين صفات المؤمنين ، وصفات المنافقين بقوله ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله﴾ كما قابل في الجزاء بين نار جهنم والجنة فكانت مقابلة لطيفة[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله . . إلى . . فهم لا يعلمون﴾

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٣) .

المُنَاسَبَة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين ، وتفضح أسرارهم ، وتكشف أحوالهم ، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين .

---

(١) المختصر ٢/ ١٥٦ . (٢) تفسير الرازي ١٦/ ١٣٠ بشيء من التصرف .

اللغة : ﴿أعقبهم﴾ قال الليث : يقال أعقبت فلاناً ندامة إذا صارت عاقبة أمره ذلك ، ويقال : أكل أكلة أعقبته سقماً أي حصل له بها السقم قال الهذلي :

أودى بني وأعقبوني حسرة ... بعد الرقاد وعبرة لا تقلع[1]

﴿سرهم﴾ السر : ما ينطوي عليه الصدر ﴿نجواهم﴾ النجوى : ما يكون بين شخصين أو أكثر من الحديث مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي ، كأن المتناجيين منعا إدخال غيرهما معهما ﴿يلمزون﴾ يعيبون واللمز : العيب ﴿المخلَّفون﴾ المخلف ، المتروك الذي تخلف عن الجهاد ﴿الطَّول﴾ الغنى ﴿المعذِّرون﴾ جمع معذر كمقصِّر وهو الذي يعتذر بغير عذر قال الجوهري : هو الذي يعتذر بالكذب[2] وأصله من العذر وفي الأمثال « أعذر من أنذر » أي بالغ في العذر من تقدم إليك فأنذرك .

سبب النزول : أ ـ روي أن رجلاً يسمى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : ادع الله أن يرزقني مالاً فقال : ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره ، خير من كثير ، لا تطيقه ، فقال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فلم يزل يراجعه حتى دعا له ، فاتخذ غنماً فنمَت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة ، فسأل رسول الله ﷺ عنه فأخبروه بخبره فقال : يا ويح ثعلبة ثلاثاً ، فأنزل الله ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . .﴾ الآية[3] فهلك في خلافة عثمان . .

ب ـ عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه الى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فقال يا رسول الله : أعلى عدو الله تصلي ؟ فقال : أخر عني يا عمر إني خُيِّرت فاخترت فقيل لي ﴿استغفر لهم﴾ الآية ولو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت ، ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره فما كان إلا يسيراً حتى أنزل الله ﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً . .﴾[4] الآية .

* وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ

التفسير : ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ أي ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لئن آتانا من فضله﴾ أي لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق ﴿لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ أي لنصدقن على الفقراء والمساكين ، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح ﴿فلما آتاهم من فضله﴾ أي فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله ﴿بخلوا به وتولوا وهم معرضون﴾ أي بخلوا

(١) الرازي ١٦/١٤٢ . (٢) القرطبي ٨/٢٢٥ . (٣) أسباب النزول ١٤٥ وهذا الذي ذكره المفسرون غير « ثعلبة بن أبي حاطب » الصحابي المشهور ، وإنما هذا رجل من المنافقين يسمى ثعلبة والله أعلم . (٤) مختصر ابن كثير ٢/ ١٦١ .

بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ

بالإنفاق ونقضوا العهد وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾ أي جعل الله عاقبتهم رسوخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ أي بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من التصدق والصلاح ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي وبسبب كذبهم في دعوى الإيمان والإحسان ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم ، ما يخفونه في صدورهم ، وما يتحدثون به بينهم ؟ ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس ؟ ﴿الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات﴾ أي يعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين في صدقاتهم ﴿والذين لا يجدون إلا جُهدهم فيسخرون منهم﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلا طاقتهم فيهزءون منهم روى الطبري عن ابن عباس قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ ، وجاء رجل من الأنصار بصاعٍ من تمر ، فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع فنزلت[1] ﴿سخر الله منهم﴾ أي جازاهم على سخريتهم وهو من باب المشاكلة[2] ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب موجع ، هو عذاب الآخرة المقيم ﴿استغفر لهم أو لاتستغفر لهم﴾ أمر ومعناه الخبر أي سواء يا محمد استغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال الزمخشري : والسبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير[3] والمعنى مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن يغفر الله لهم أبداً ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يوفق للإيمان الخارجين عن طاعته ، ولا يهديهم إلى سبيل السعادة ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بقعودهم بعد خروج الرسول ﷺ مخالفة له حين سار وأقاموا ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وكرهوا الخروج إلى الجهاد إيثاراً للراحة

(١) الطبري ١٠/١٩٤ . (٢) المشاكلة : اتفاق الكلمتين لفظاً واختلافهما معنى . (٣) الكشاف ٢/٢٩٥ .

أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

وخوف إتلاف النفس والمال لما في قلوبهم من الكفر والنفاق ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾ أي قال بعضهم لبعض : لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر ، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة في حر شديد ، قال أبو السعود : وإنما قال ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ على قوله « وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو » إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجلِّ الرغائب ، وأشرف المطالب ، التي يجب ان يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ وقالوا لإخوانهم تواصياً فيما بينهم بالشر والفساد لا تنفروا في الحر ، فقد جمعوا ثلاث خصال من الكفر والضلال : الفرح بالقعود ، وكراهية الجهاد ، ونهي الغير عن ذلك[1] ، قال تعالى رداً عليهم ﴿قل نار جهنم أشد حراً﴾ أي قل لهم يا محمد : نار جهنم التي تصيرون إليها بتثاقلكم عن الجهاد أشد حراً مما تحذرون من الحر المعهود ، فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى ، وحر جهنم دائم لا يفتر ، فما لكم لا تحذرون نار جهنم ؟ قال الزمخشري : وهذا استجهال لهم ، لأن من تصوَّن من مشقة ساعة ، فوقع بذلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل[2] ﴿لو كانوا يفقهون﴾ أي لو كانوا يفهمون لنفروا مع الرسول ﷺ في الحر ، ليتقوا به حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم « كالمستجير من الرمضاء بالنار» ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أمر يراد به الخبر معناه : فسيضحكون قليلاً ، وسيبكون كثيراً ، قال ابن عباس : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً[3] ﴿جزاءً بما كانوا يكسبون﴾ أي جزاءً لهم على ما اجترحوا من فنون المعاصي ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم﴾ أي فإن ردك الله من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ أي طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبداً ﴿ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ أي لن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله ، وهو خبر معناه النهي للمبالغة ، جارٍ مجرى الذم لهم لإظهار نفاقهم ﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾ أي قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ أي فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان ﴿ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً﴾ أي لا تصل يا محمد على أحدٍ من هؤلاء المنافقين إذا مات ، لأن صلاتك

(١) أبو السعود ٢/ ٢٨٦ . (٢) الكشاف ٢/ ٢٩٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ١٦٠ .

وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ

رحمة ، وهم ليسوا أهلاً للرحمة ﴿ولا تقم على قبره﴾ أي لا تقف على قبره للدفن ، أو للزيارة والدعاء ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿وماتوا وهم فاسقون﴾ أي وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان ، نزلت في ابن سلول[1] ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾ أي لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا﴾ أي لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ التنكير للتفخيم أي وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن ﴿أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله﴾ أي بأن آمنوا بالله بصدقٍ ويقين ، وجاهدوا مع الرسول لنصرة الحق وإعزاز الدين ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ أي استأذنك في التخلف أولو الغنى والمال الكثير ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ أي دعنا نكن مع الذين لم يخرجوا للغزو وقعدوا لعذر ، قال تعالى تقبيحاً لهم وذماً ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿وطبع على قلوبهم﴾ أي ختم عليها ﴿فهم لا يفقهون﴾ أي فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة ، وما في التخلف عنه من الشقاوة ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ قال الرازي : لما شرح حال المنافقين ،بيّن حال الرسول والمؤمنين بالضد منه ، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه[2] والمعنى : إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا ، فقد جاهد من هو خيرمنهم وأخلص نية واعتقاداً ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ أي لهم منافع الدارين : النصر والغنيمة في الدنيا ، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بالمطلوب ﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي أعد الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي لابثين في الجنة أبداً ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم

(١) انظر سبب النزول السابق . (٢) الرازي ١٦/ ١٥٧ .

﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

الذي لا فوز وراءه ﴿وجاء المعذِّرون من الأعراب﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب الذين انتحلوا الأعذار وتخلفوا عن الجهاد ﴿ليؤذن لهم﴾ أي في ترك الجهاد ، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة ، قال البيضاوي : هم « أسد » و « غطفان » استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال[1] ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ أي وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان ، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ وعيد لهم شديد أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا ، والنار في الآخرة ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ أي ليس على الشيوخ المسنين ، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ﴿حرج﴾ أي إثم في القعود ﴿إذا نصحوا للّهِ ورسوله﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم ، ولم يثيروا الفتن ، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار ﴿ ما على المحسنين من سبيل﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل قال في التسهيل : وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله ، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم[2] ، وهذا من بليغ الكلام لأن معناه : لا سبيل لعاتب عليهم ، وهو جارٍ مجرى المثل ﴿والله غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة والرحمة حيث وسع على أهل الأعذار ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ نزلت في البكائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه قال البيضاوي : هم البكاءون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك ، فقال عليه السلام : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون[3] ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ أي ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب ﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن ﴿ألا يجدوا ما ينفقون﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم ، ولم يكن عند الرسول ما يحملهم عليه ﴿إنما السبيل

(١) البيضاوي ٢٣٠ . (٢) التسهيل ٢/٨٣ . (٣) البيضاوي ٢٣٠ .

على الذين يستأذنونك وهم أغنياء﴾ أي إنما الإثم والحرج على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ أي ختم عليها فهم لذلك لا يهتدون .

البَلَاغَة : ١ - ﴿يعلم . . وعلام الغيوب﴾ بين يعلم وعلام جناس الاشتقاق .

٢ - ﴿ولهم عذاب أليم﴾ التنوين في عذابٌ للتهويل والتفخيم .

٣ - ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ بينهما طباق السلب، وقد خرج الأمر عن حقيقته إلى التسوية .

٤ - ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٥ - ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ الخوالف : النساء المقيمات في دار الحي بعد رحيل الرجال ففيه استعارة ، وإنما سمي النساء خوالف تشبيهاً لهن بالخوالف وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحي فشبههن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت[1] .

٦ - ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ هو من عطف الخاص على العام اعتناءً بشأنهم أفاده الألوسي[2] .

فَائِدَة : قال الزمخشري عند قوله تعالى ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ لفظ السبعين جارٍ مجرى المثل في كلام العرب للتكثير قال علي بن أبي طالب :

لأصبحن العاص وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي

فذكرها ليس لتحديد العدد ، وإنما هو للمبالغة جرياً على أساليب العرب[3] .

تَنْبِيه : إنما منع ﷺ من الصلاة على المنافقين ، لأن الصلاة على الميت دعاء واستغفار واستشفاع له ، والكافر ليس بأهل لذلك .

لَطِيفَة : اشتهر « حذيفة بن اليمان » بأنه صاحب سر الرسول ﷺ وقد قال له ﷺ : إني مسرٌ إليك سراً فلا تذكره لأحد ، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان ، لرهط ذوي عدد من المنافقين ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يأتيه فيقول : أسألك باللهِ هل عدَّني رسول الله من المنافقين ؟ !

* * *

(١) تلخيص البيان للشريف الرضي ١٤٨ . (٢) روح المعاني ١٠/ ١٥٩ . (٣) الكشاف ٢/ ٢٩٥

قال الله تعالى : ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم . . إلى . . والله عليم حكيم﴾ من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن المنافقين ، الذين تخلفوا عن الجهاد وجاءوا يؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة ، وقد ذكر تعالى من مكائد المنافقين « مسجد الضرار » الذي بنوه ليكون وكراً للتآمر على الإسلام والمسلمين ، وحذر نبيه ﷺ من الصلاة فيه ، لأنه لم يشيد على أساس من التقوى ، وإنما بني ليكون مركزاً لأهل الشقاق والنفاق ، ولتفريق وحدة المسلمين ، وقد اشتهر باسم مسجد الضرار .

اللغة : ﴿انقلبتم﴾ رجعتم ﴿رجس﴾ الرجس : الشيء الخبيث المستقذر ، وقد يطلق على النجس ﴿ومأواهم﴾ قال الجوهري : المأوى كل مكان يأوي إليه ليلاً أو نهاراً ﴿الأعراب﴾ جمع أعرابي قال أهل اللغة : يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب ، ورجل أعرابي إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ ، سواء كان من العرب أو من مواليهم ، فمن استوطن القرى العربية فهم عرب ، ومن نزل البادية فهم أعراب[1] ﴿أجدر﴾ أولى وأحق ﴿مغرماً﴾ المغرم : الغرم والخسران وأصله من الغرام وهو لزوم الشيء[2] ﴿مردوا﴾ ثبتوا واستمروا وأصل الكلمة من اللين والملامسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق ، ومنه رملة مرداء لا نبت فيها ، وغصن أمرد لا ورق عليه ، وغلام أمرد لا لحية له ﴿مرجون﴾ الإرجاء : التأخير يقال : ارجأته أي أخرته ومنه المرجئة لأنهم أخروا العمل ﴿ضراراً﴾ الضرار : محاولة الضر وفي الحديث (لا ضرر ولا ضرار)[3] ﴿إرصاداً﴾ الإرصاد : الترقب والانتظار يقال أرصدت له كذا إذا أعددته مرتقباً له به ﴿شفا﴾ الشفا : الحرف والشفير ومنه أشفى على كذا إذا دنا منه ﴿جُرف﴾ : ما تجرفه السيول من الأودية ويبقى على الأطراف طين مشرف على السقوط وأصله من الجرف وهو اقتلاع الشيء من أصله ﴿هار﴾ ساقط يقال : تهور البناء إذا سقط وأصله هائر .

سبب النزول : روي أن « أبا عامر الراهب »[4] قد تنصر في الجاهلية وترهب ، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه لأنه ذهبت رياسته وقال : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ـ وسماه النبي ﷺ أبا عامر الفاسق ـ فلما انهزمت هوازن في حنين خرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأُخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء ، وأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا بنينا مسجداً لذي العِلة ، والحاجة ، والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فدعا بثوبه ليلبسه فيأتيهم فنزل عليه القرآن ، وأخبر الله رسوله خبر مسجد الضرار وما هموا به ، فدعا ﷺ بعض الصحابة وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله واحرقوه ، فذهبوا إليه فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله ، وفيه نزلت ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً . .﴾[5] الآية .

---

(١) الرازي ١٦/ ١٦٥ . (٢) القرطبي ٨/ ٢٣٤ . (٣) رواه الدارقطني .

(٤) هو والد حنظلة الذي غسلته الملائكة . (٥) أسباب النزول ١٤٩ .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ

التفسير : ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ أي يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم ﴿قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾ أي قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أي قد أخبرنا الله بأحوالكم وما في ضمائركم من الخبث والنفاق ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أي وسيرى الله ورسوله عملكم فيما بعد ، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ﴿ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله تعالى الذي يعلم السر والعلانية ، ولا تخفى عليه خافية ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيخبركم عند وقوفكم بين يديه بأعمالكم كلها ، ويجازيكم عليها الجزاء العادل ﴿سيحلفون بالله لكم﴾ أي سيحلف لكم بالله هؤلاء المنافقون ﴿إذا انقلبتم إليهم﴾ أي إذا رجعتم إليهم من تبوك معتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿لتُعرضوا عنهم﴾ أي لتصفحوا عنهم ولتعرضوا عن ذمهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقتٍ واجتناب ، وخلُّوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق قال ابن عباس : يريد ترك الكلام والسلام[1] ثم ذكر تعالى العلة فقال : ﴿إنهم رجس﴾ أي لأنهم كالقذر لخبث باطنهم ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مصيرهم إلى جهنم هي مسكنهم ومأواهم ﴿جزاءً بما كانوا يكسبون﴾ أي جزاءً لهم على نفاقهم في الدنيا ، وما اكتسبوه من الآثام ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ كرره لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة ، أي يحلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي فإن رضيتم عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم لأن الله ساخط عليهم قال أبو السعود : ووضع الفاسقين موضع الضمير للتسجيل عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة[2] ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ الأعراب ـ أهل البدو ـ أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر ، لجفائهم وقسوة قلوبهم ، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح ﴿وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ أي وهم أولى بألا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع قال في البحر : وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً

(١) الرازي ١٦/ ١٦٤ . (٢) أبو السعود .

مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب ، فقد نشأوا كما شاءوا ، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله ، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة[1] ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بخلقه حكيم في صنعه ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ أي ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء من يعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً ، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجوله ثواباً ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي ومن الأعراب من يصدِّق بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين ﴿ويتخذ ما ينفق قرباتٍ عند الله﴾ أي ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبته ﴿وصلوات الرسول﴾ أي دعاء الرسول واستغفاره له ﴿ألا إنها قربةٌ لهم﴾ ﴿ألا﴾ أداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر أي ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضا ربهم حيث أنفقوها مخلصين ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ أي سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم للطاعة ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة ، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة[2] ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ أي سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة ، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ وعدٌ بالغفران والرضوان أي رضي الله عنهم وأرضاهم ، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون ، ويتنافس فيها المتنافسون أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم قال الطبري : رضي الله عنهم لطاعتهم إياه وإجابتهم نبيه ، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطاعة والإيمان ﴿وأعدَّ لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهار﴾ أي وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مقيمين فيها من غير انتهاء ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه قال في البحر : لمابيّن تعالى فضائل الأعراب المؤمنين ، بيّن حال هؤلاء السابقين ، ولكن

(١) البحر المحيط . (٢) روي عن الشعبي انهم الذين بايعوا بيعة الرضوان وقيل : هم الذين صلوا الى القبلتين وما ذكرناه انهم جميع الصحابة وهم السابقون في الهجرة والنصرة هو ما رجحه الطبري واختاره الفخر الرازي .

﴿الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾

شتان ما بين الثناءين فهناك قال ﴿ألا إنها قُرْبةٌ لهم﴾ وهنا قال ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ وهناك ختم ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وهنا ختم ﴿ذلك الفوز العظيم﴾[1] ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ أي وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب منازلهم قريبة من منازلكم ﴿ومن أهل المدينة﴾ أي ومن أهل المدينة منافقون أيضاً ﴿مردوا على النفاق﴾ أي لجوا في النفاق واستمروا عليه قال ابن عباس : مرنوا عليه وثبتوا منهم ابن سلول ، والجلاس ، وأبو عامر الراهب[2] ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين ، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم ﴿سنعذبهم مرتين﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وعند الموت بعذاب القبر ﴿ثم يُردون إلى عذاب عظيم﴾ أي ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النار ، الذي أعده الله للكفار والفجار ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أي وقوم آخرون أقروا بذنوبهم ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة قال الرازي[3] : هم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل لكسلهم ، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول لسائر الغزوات بالعمل السيء وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرة ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ أي لعل الله يتوب عليهم قال الطبري : وعسى من الله واجب ومعناه : سيتوب الله عليهم ، ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي على ما وصفت[4] ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي ذو عفو لمن تاب ، عظيم الرحمة لمن أناب ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوضار ، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار ﴿وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ أي وادع لهم بالمغفرة فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم قال ابن عباس : ﴿سكنٌ لهم﴾ رحمة لهم ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لقولهم عليم بنياتهم ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ الاستفهام للتقرير أي ألم يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده ، ﴿ويأخذ الصدقات﴾ أي

---

(١) البحر ٥/ ٩٢ . (٢) تفسير ابن الجوزي ٣/ ٤٩١ . (٣) الرازي ١٦/ ١٧٤ . (٤) الطبري ١١/ ١٢ .

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ

يتقبلها ممن أخلص النية ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ أي وأن الله وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة ، لقوله ﴿غافر الذنب قابل التوب﴾ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ صيغة أمرمتضمنة للوعيد أي اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله ، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وستردُّون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي وستردُّون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿وآخرون مُرجون لأمر الله﴾ أي وآخرون من المتخلفين مؤخرون إلى أن يظهر أمر الله فيهم قال ابن عباس : هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار ، وكانوا من أصحاب بدر ، فنهى النبي ﷺ عن كلامهم والسلام عليهم ، فصاروا مرجئين لأمره تعالى[1] إلى أن يتجاوز عن سيئاتهم ،فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ويتوب على العبد دون غيره ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ أي إما أن يعذبهم إن لم يتوبوا ، وإما أن يوفقهم للتوبة ويغفر لهم ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بأحوالهم حكيم فيما يفعله بهم ، وهؤلاء الثلاثة المذكورون في قوله تعالى ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وقد وقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجرام حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر ، وسموه مسجداً مضارة للمؤمنين[2] ، وقد اشتهر باسم «مسجد الضرار» ﴿وكفراً﴾ أي نصرة للكفر الذي يخفونه ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين ، ويصرفونهم عن مسجد قباء ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ أي ترقباً وانتظاراً لقدوم أبي عامر الفاسق الذي قال لرسول الله : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ليكون معقلاً له قال الطبري في رواية الضحاك : هم ناس من المنافقين بنوا مسجداً بقباء يضارون به نبي الله والمسلمين وكانوا يقولون : إذا رجع أبو عامر صلى فيه ، وإذا قدم ظهر على محمد وتغلب عليه[3] ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي وليقسمن ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان ، من الرفق بالمسكين ، والتوسعة على المصلين ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي والله يعلم كذبهم في ذلك الحلف ، وأتى بإن واللام لزيادة التأكيد ، ثم نهى تعالى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار فقال ﴿لا

(١) أبو السعود ٢/ ٢٩٥ . (٢) انظر سبب النزول . (٣) الطبري ١١/ ٢٥ .

يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

تقم فيه أبداً﴾ أي لا تصل فيه يا محمد أبداً لأنه لم يُبْنَ إلا ليكون معقلاً لأهل النفاق ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ اللام لام القسم أي لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته ﴿من أول يوم﴾ أي من أول يوم ابتدىء في بنائه ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ أي أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ أي في هذا المسجد رجال أتقياء ـ وهم الأنصار ـ يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي ﴿والله يحب المطهرين﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة ، ثم أشار تعالى إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار فقال : ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى : هل من أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلبٍ لمرضاته بالطاعة ﴿خير أم من أسس بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ﴾ أي هل ذاك خير أم هذا الذي أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط؟ ﴿فانهار به في نار جهنم﴾ أي فسقط به البناء في نار جهنم ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفق الظالمين إلى السداد ، ولا يهديهم سبيل الرشاد . والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإخلاص ، والإيمان ، وعمل أهل النفاق والضلال ، والمعنى هل من أسس بنيان دينه على التقوى والإخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط؟ ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجدالضرار شكٌ ونفاقٌ، وغيظ وارتياب بسبب هدمه، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين ، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدمه وحرقه وأمر بإلقاء الجيف والنتن والقمامة فيه إهانة لأهله ، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ أي لا يزالون في ارتياب وغيظ إلا ان تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿والله عليم حكيم﴾ أي والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين ، حكيم في تدبيره إياهم ومجازاتهم بسوء نياتهم .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿الغيب والشهادة﴾ بين الكلمتين طباق .

٢ ـ ﴿لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ الإظهار في موضع الإضمار لزيادة التشنيع والتقبيح وأصله لا يرضى عنهم .

٣ ـ ﴿سيدخلهم في رحمته﴾ فيه مجاز مرسل أي يدخلهم في جنته التي هي محل الرحمة وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل .

٤ ـ ﴿عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ بين ﴿صالحاً وسيئاً﴾ طباق .

٥ ـ ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ فيه تشبيه بليغ حيث جعل الصلاة نفس السكن والاطمئنان مبالغة وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٦ ـ ﴿هارٍ فانهار﴾ بينهما جناس ناقص وهو من المحسنات البديعية .

٧ ـ ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى﴾ في الكلام استعارة مكنية حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يعتمد عليها البنيان وطوي ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو التأسيس[١] .

تنبيه : كلمة « عسى » من الله واجب قال الإمام الرازي : وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام ، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً فإنه لا يجيبه إلا على سبيل الترجي مع كلمة « عسى » أو « لعل » تنبيهاً على أنه ليس لأحدٍ أن يلزمه بشيء ، بل كل ما يفعله فإنما هو على سبيل التفضل والتطول ، وفيه فائدة أخرى وهو أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الإتكال والإهمال[٢] .

لطيفة : روى الأعمش أن أعرابياً جلس إلى « زيد بن صوحان » وهو يحدث أصحابه ـ وكانت يده أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريبني ! فقال زيد : ما يريبك من يدي إنها الشمال ، فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال فقال زيد : صدق الله ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . .﴾ الآية ، معنى تريبني أي تدخل إلى قلبي الشك هل قطعت في سرقة وهذا من جهل الأعرابي[٣] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . . إلى . . وهو رب العرش العظيم﴾ من آية (١١١) إلى آية (١٢٩) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى أحوال المنافقين ، المتخلفين عن الجهاد ، المثبطين عنه ، ذكر صفات المؤمنين المجاهدين ، الذين باعوا أنفسهم لله . . ثم ذكر قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وتوبة الله عليهم ، وختم السورة بتذكير المؤمنين بالنعمة العظمى ، ببعثة السراج المنير ، النبي العربي ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين .

اللغة : ﴿أواه﴾ كثير التأوه ومعناه الخاشع المتضرع ، يقال : تأوه الرجل تأوهاً إذا توجع قال الشاعر :

إذا ما قمت أرحلها بليلٍ تأوه آهة الرجل الحزين[٤]

---

(١) انظر ما كتبه الشريف الرضي في تلخيص البيان حول هذه الآية الكريمة ص ١٤٩ ففيه روائع البيان . (٢) الرازي ١٦/ ١٧٦ .
(٣) محاسن التأويل ٨/ ٣٢٣٩ . (٤) البحر ٥/ ٨٨ .

﴿حليم﴾ الحليم : الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنب ويصبر على الأذى ﴿العسرة﴾ الشدة وصعوبة الأمر وتسمى غزوة تبوك « غزوة العسرة» لما فيها من المشقة والشدة ﴿يزيغ﴾ الزيغ : الميل : يقال زاغ قلبه إذا مال عن الهدى والايمان ﴿ظمأ﴾ الظمأ : شدة العطش ﴿نصب﴾ النصب : الإعياء والتعب ﴿مخمصة﴾ مجاعة شديدة يظهر بها ضمور البطن ﴿ينالون﴾ يصيبون ، نال الشيء إذا أدركه وأصابه ﴿غلظة﴾ شدة وقوة وحمية ﴿عزيز﴾ صعب وشاق ﴿عنتم﴾ العنت : الشدة والمشقة .

سَبَبُ النّزول : أ ـ لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة ـ وكانوا سبعين رجلاً ـ قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . .﴾[١] الآية .

ب ـ لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : أي عم قل « لا إله إلا الله » كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وابن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول « لا إله إلا الله» فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله عز وجل ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين . .﴾ ونزلت ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾[٢] .

* إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى

التفسير : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين ، مَثَّل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء قال الحسن : بايعهم فأغلى لهم الثمن[٣] وانظروا إلى كرم الله ، أنفساً هو خلقها ، وأموالاً هو رزقها ، ثم وهبها لهم ، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة وقال بعضهم : ناهيك عن بيعٍ البائعُ فيه المؤمن ، والمشتري فيه رب العزة والثمن فيه الجنة ، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد عليه الصلاة والسلام ﴿يقاتلون في سبيل الله﴾ أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿فيقتلون ويُقتلون﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم ، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿وعداً عليه حقاً﴾ أي وعدهم به المولى وعداً قاطعاً ﴿في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ أي وعداً مثبتاً في الكتب المقدسة « التوراة ، والإنجيل ، والقرآن »

(١) زاد المسير ٣/ ٥٠٤ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الطبري ١١/ ٣٥ والرازي ١٦/ ١٩٩ .

بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أوفى من الله جل وعلا قال الزمخشري : لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق ، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح ؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ[١] **﴿فاستبشروا ببيْعكم الذي بايعتم به﴾** أي أبشروا بذلك البيع الرابح وافرحوا به غاية الفرح **﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾** هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه **﴿التائبون العابدون الحامدون﴾** كلام مستأنف قال الزجاج : مبتدأ خبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله **﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾** والمعنى التائبون عن المعاصي ، العابدون أي المخلصون في العبادة ، الحامدون لله في السراء والضراء **﴿السائحون﴾** أي السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم ، من السياحة وهي السير والذهاب في المدن والقفار للعظة والاعتبار[٢] **﴿الراكعون الساجدون﴾** أي المصلون **﴿الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر﴾** أي الداعون إلى الله ، يدعون الناس إلى الرشد والهدى ، وينهونهم عن الفساد والردى **﴿والحافظون لحدود الله﴾** أي المحافظون على فرائض الله ، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام قال الطبري : أي المؤدون فرائض الله ، المنتهون إلى أمره ونهيه[٣] **﴿وبشر المؤمنين﴾** أي بشرهم بجنات النعيم ، وحذف المبشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر ، بل لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾** أي لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين **﴿ولو كانوا أولي قربى﴾** أي ولو كان المشركون أقرباء لهم **﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾** أي من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر ، والآية نزلت في أبي طالب[٤] **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾** هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه آزر أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار **﴿إلا عن موعدةٍ وعدها إياه﴾** أي إلا من أجل وعدٍ تقدم له بقوله **﴿سأستغفر لك ربي﴾** وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك **﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾** أي فلما تبين لإبراهيم ان أباه مصرّ على الكفر ومستمر على

---

(١) الكشاف ٢/ ٣١٤ .

(٢) فسر بعضهم « السائحون » بأنهم الصائمون وقال عطاء : هم الغزاة وقال ابن زيد : هم المهاجرون وما ذهبنا إليه هو ما رجحه الفخر الرازي وهو الأولى بتفسير الآية الكريمة ويدل عليه ﴿فسيحوا في الأرض﴾ والله أعلم . (٣) الطبري ١١/ ٣٩ . (٤) انظر سبب النزول .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾

الكفر ، تبرأ من أبيه بالكلية فضلاً عن الاستغفار له ، ثم بيّن تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبره على أبيه فقال ﴿إن إبراهيم لأواه﴾ أي كثير التأوه من فرط الرحمة ورقة القلب ﴿حليم﴾ أي صبور على ما يعترضه من الأذى ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾ فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك قال أبو حيان : ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد ان يُقتدى به بيّن تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه ، وهو الوعد الذي كان وعده به ، فكان يرجو إيمانه فلما تبيّن له من جهة الوحي أنه عدو لله ، وأنه يموت كافراً ، وانقطع رجاؤه منه تبرأ منه وقطع استغفاره[1] ﴿وما كان الله ليضل قوماً﴾ نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين ، فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيساً لهم[2] أي ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال ﴿بعد إذ هداهم﴾ أي بعد أن وفقهم للإيمان ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ أي حتى يبين لهم ما يجتنبونه فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ أي عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية ، ومن يستحق الإضلال ﴿إن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي له سلطان السموات والأرض وملكهما ، وكل من فيهما عبيده ومماليكه ﴿يحيي ويميت﴾ أي بيده وحده حياتهم وموتهم ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي ما لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجأون إليه أو تعتمدون عليه قال الألوسي : لما منعهم سبحانه عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى ، وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم ، بيّن لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود ، ومتولي أمره ، والغالب عليه ، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى ، ليتوجهوا إليه بكليتهم ، متبرئين عما سواه ، غير قاصدين إلا إياه[3] ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ أي تاب الله على النبي من إذنه للمنافقين في التخلف ، وتاب على المهاجرين والأنصار لما حصل منهم من بعض الهفوات في غزوة تبوك ، حيث تباطأ بعضهم ، وتثاقل عن الجهاد آخرون ، والغرض التوبة على من تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنابوا ، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم ، وصدّرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنويهاً لشأنهم ، وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرون والأنصار[4] ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر ، وقلة الزاد ، والضيق الشديد روى الطبري عن عمر رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر

(١) البحر المحيط ٥/ ١٠٥ . (٢) التسهيل ٢/ ٨٦ . (٣) روح المعاني ١١/ ٣٩ . (٤) انظر الكشاف ٢/ ٣١٦ .

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا﴾

البعير فيعصر فرثه فيشربه ، فقال أبو بكر يا رسول الله : إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، قال : تحب ذلك ؟ قال: نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء فملأوا ما معهم ، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1] ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب ، لما نالهم من المشقة والشدة ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو ، وهم « كعب ، وهلال ، ومرارة »[2] ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي ضاقت عليهم مع سعتها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهم ، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ، وذلك بسبب أن الرسول عليه السلام دعا لمقاطعتهم ، فكان أحدهم يفشي السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه ، وهجرتهم نساؤهم وأهلوهم وأهملوهم حتى تاب الله عليهم ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي وأيقنوا أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه ، إلا بالرجوع والإنابة إليه سبحانه ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ أي رجع عليهم بالقبول والرحمة ، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾ أي المبالغ في قبول التوبة وإن كثرت الجنايات وعظمت ، المتفضل على العباد بالرحمة الشاملة ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ، وكونوا مع أهل الصدق واليقين ، الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أي لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره ولا يكرهوها له عليه السلام ، بل عليهم ان يفدوه بالمُهَج والأرواح ، وأن يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب قال الزمخشري : أُمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها عليه ، لا أن يضنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهي بليغ ، وتهييج لمتابعته عليه السلام[3] ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ﴾ أي ذلك النهي عن التخلف بسبب أنهم لا يصيبهم عطش ﴿ولا نصب﴾ أي ولا تعب

(١) الطبري ١١/ ٥٥ . (٢) انظر قصتهم في صحيح البخاري كتاب المغازي وفي الطبري ١١/ ٥٨ . (٣) الكشاف ٢/ ٣٢١ .

نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ * وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا

﴿ولا مخمصة﴾ أي ولا مجاعة ﴿في سبيل الله﴾ أي في طريق الجهاد ﴿ولا يطأون موطئاً﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم ﴿يغيظ الكفار﴾ أي يغضب الكفار وطؤ ها ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ أي ولا يصيبون أعداءهم بشيء بقتل أو أسر أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح﴾ أي إلا كان ذلك قربة لهم عند الله ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿ولا ينفقون نفقةً صغيرة ولا كبيرة﴾ قال ابن عباس : تمرة فما فوقها ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ أي ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً أو إياباً ﴿إلا كتب لهم﴾ أي أثبت لهم أجر ذلك ﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم قال الألوسي : على معنى أن لأعمالهم جزاءً حسناً وجزاء أحسن ، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء[١] ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو[٢] بحيث تخلو منهم البلاد ، روي عن ابن عباس انه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش او سرية أبداً ، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية[٣] ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ أي فإذا لم يمكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ أي ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ أي وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه قال الألوسي : وكان الظاهر أن يقال ﴿ليعلموا﴾ بدل ﴿لينذروا﴾ و﴿يفقهون﴾ بدل ﴿يحذرون﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة الى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم : الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم : اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار[٤] ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ أي قاتلوا القريبين منكم وطهروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتقلوا الى غيرهم ، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح ، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا الى

(١) روح المعاني ٤٧/١١ . (٢) وقيل : المراد أن ينفروا لطلب العلم . (٣) الرازي ٢٢٥/١٦ . (٤) روح المعاني ٤٨/١١ .

مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

الأبعد فالأبعد ﴿وليجدوا فيكم غلظةً﴾ أي وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ﴿واعلموا ان الله مع المتقين﴾ أي واعلموا أن من اتقى الله كان الله معه بالنصر والعون ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ أي من سور القرآن ﴿فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ أي فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاء : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ على وجه الاستخفاف بالقرآن كأنهم يقولون : أي عجب في هذا وأي دليل في هذا ؟ يقول تعالى ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ أي فأما المؤمنون فزادتهم تصديقاً وذلك لما يتجدد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة ﴿وهم يستبشرون﴾ أي وهم يفرحون لنزولها لأنه كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا إيماناً ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي وأما المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم ، فازدادوا رجساً وضلالاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال ﴿وماتوا وهم كافرون﴾ أي ماتوا على الكفر ﴿أو لا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أولا يرى هؤلاء المنافقون الذين تُفضح سرائرهم كل سنة مرة أومرتين حين ينزل فيهم الوحي ؟ ﴿ثم لا يتوبون ولا هم يَذَّكَّرون﴾ أي ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾ أي وإذا أنزلت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نصبر على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا ﴿صرف الله قلوبهم﴾ جملة دعائية أي صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون فهم حمقى غافلون ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أي لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر ، من جنسكم عربي قرشي ، يُبلغكم رسالة الله ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي يشق عليه عنتكم وهو المشقة ولقاء المكروه ﴿حريص عليكم﴾ أي حريص على هدايتكم ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ أي رءوف بالمؤمنين رحيم بالمذنبين ، شديد الشفقة والرحمة عليهم قال ابن عباس : سماه باسمين من أسمائه[1] ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله﴾ أي فإن أعرضوا عن الايمان

---

(١) زاد المسير ٣/ ٥٢١ .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

بك يا محمد فقل يكفيني ربي ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود سواه ﴿عليه توكلت﴾ أي عليه اعتمدت فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء ، لكونه أعظم الأشياء ؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى .

البـلاغـة : ١ - ﴿إن الله اشترى﴾ استعارة تبعية شبه بذلهم الأموال والأنفس وإثابتهم عليها بالجنة بالبيع والشراء .

٢ - ﴿فيَقتلون ويُقتلون﴾ فيه جناس ناقص لاختلافهما في الشكل وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿الراكعون الساجدون﴾ يعني المصلون فيه مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[1].

٤ - ﴿وبشر المؤمنين﴾ الإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بهم وتكريمهم .

٥ - ﴿موعدة وعدها﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ - ﴿ليضل . . إذ هداهم﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يحيي . . ويميت﴾ وكذلك ﴿ضاقت . . ورحبت﴾ .

٧ - ﴿التواب الرحيم﴾ من صيغ المبالغة .

٨ - ﴿يطأون موطئاً﴾ جناس الاشتقاق وكذلك ﴿ينالون نيلاً﴾ .

٩ - ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾ طباق .

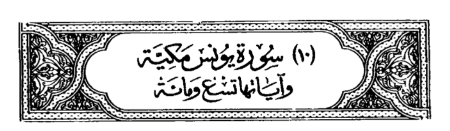
١٠ - ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ قال في تلخيص البيان : السورة لا تزيد الأرجاس رجساً ،ولا القلوب مرضاً ، بل هي شفاء للصدور وجلاء للقلوب ،ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمىً ، حسن أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة .

تـنـبـيـه : روي أن أبا خيثمة الأنصاري رضي الله عنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ في الحر والريح ! ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح فنظر رسول الله ﷺ خلفه فإذا براكب وراء السراب ، فقال : كن أبا خيثمة ! فكان ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له .

تم تفسير سورة التوبة ولله الحمد في البدء والختام

* * *

(١) تلخيص البيان ١٥٢ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

سورة يونس من السور المكية التي تُعْنى بأصول العقيدة الإسلامية « الايمان بالله تعالى ، والايمان بالكتب ، والرسل ، والبعث والجزاء » وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الايمان بالرسالات السماوية ، وبوجه أخص إلى « القرآن العظيم » خاتمة الكتب المنزلة ، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور .

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول ، وبيَّنت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين ، فما من أمةٍ إلا بعث الله إليها رسولاً ، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس . .﴾ ؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة « الألوهية » و« العبودية » وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرَّفت الناسَ بربهم الحقِّ الذي ينبغي أن يعبدوه ، وأن يُسلموا وجوههم إليه ، فهو وحده الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المدبِّر الحكيم ، وكل ما سواه فباطل وهباء ﴿إنَّ ربكم اللهُ الذي خلَق السَّموات والأرضَ في ستةِ أيام . .﴾ الآيات .

* وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن ، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة ، الدالة على صدق النبي الأمي ، وأنه يحمل برهانه في تفرده المعجز ، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة ، وأمراء البيان ﴿أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ .

* وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق ، بذكر آثار قدرته ورحمته ، الدالة على التدبير الحكيم ، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة ، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ أمَّنْ يملك السمع والأبصار . .﴾ الآيات وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها وهي موضوع الايمان بوحدانية الله جل وعلا ، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية .

* وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء ، فذكرت قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون الجبار ، وذكرت قصة نبي الله « يونس » ـ الذي سميت السورة باسمه ـ وكلُّ هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين ، ونصرة المؤمنين .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمساك بشريعة الله ، والصبر على ما يلقى من الأذى في سبيل الله ﴿واتَّبِعْ ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ .

التسمية : سميت السورة « سورة يونس » لذكر قصته فيها ، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب ، وهذا من الخصائص التي خصَّ الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

اللغة : ﴿قدم صدق﴾ قال الليث : القدم السابقة قال ذو الرمة :

وأنت امرؤٌ من أهل بيت ذُؤَابةٍ ... لهم قدمٌ معروفةٌ ومفاخر[1]

وقال أبو عبيدة : كل سابق في خير أو شر فهو قدم وقال الأخفش : سابقة إخلاص ﴿يدبّر﴾ التدبير : القضاء والتقدير على حسب الحكمة ﴿القسط﴾ العدل ﴿حميم﴾ الحميم : الماء الحار الذي سخّن بالنار حتى انتهى حره ﴿يفصِّل﴾ التفصيل : التبيين والتوضيح ﴿مأواهم﴾ مثواهم ومقامهم ﴿طغيانهم﴾ الطغيان : العلو والارتفاع ﴿يعمهون﴾ يتحيَّرون ﴿خلائف﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شئونه .

سبب النزول : قال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أنكرت الكفار وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس . .﴾[2] الآية .

التفسير : ﴿الـر﴾ إشارة إلى أن هذا الكلام البليغ المعجز ، مكوّن من جنس الأحرف التي يتكونون منها كلامكم ، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم ، وهي في متناول أيديهم ثم يعجزون عن الإتيان بمثل آية واحدة منه[3] ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي هذه آيات القرآن المُحكم المبين الذي لا يدخله شك ، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ﴿أكانَ للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم﴾ أي أكان عجباً لأهل مكة إيحاؤنا إلى رجلٍ منهم هو محمد عليه السلام ؟ والهمزة للإنكار أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله ﴿أن أنذر الناس﴾ أي أوحينا إليه بأن خوِّف الكفار عذاب النار ﴿وبشِّرِ الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَمَ صدقٍ عند ربهم﴾ أي وأنْ بشِّرِ المؤمنين بأنَّ لهم سابقةً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال ﴿قالَ الكافرونَ إنَّ هذا

(١) التفسير الكبير للرازي ١٧/ ٧ . (٢) القرطبي ٨/ ٣٠٦ . (٣) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟

لساحرٌ مبين﴾ أي ومع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن، قال المشركون: إنَّ محمداً لساحرٌ ظاهر السحر، مبطلٌ فيما يدَّعيه قال البيضاوي: وفيه اعترافٌ بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة، معجزة إيَّاهم عن المعارضة، وهو اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ما جاء به خارجٌ عن طوق البشر[1] ﴿إنَّ ربكمُ اللهُ الذي خلقَ السَّمواتِ والأرض في ستة أيام﴾ أي إنَّ ربكم ومالك أمركم الذي ينبغي أن تفردوه بالعبادة هو الذي خلق الكائنات في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، ولو شاء لخلقهـنَّ في لمحة ولكنه أراد تعليم العباد التأني والتثبت في الأمور ﴿ثـم استـوى علـى العـرش﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تكييفٍ ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل قال ابن كثير : نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل ، والمتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌ عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيءٌ من خلقه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة ، والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله ، فقد سلك سبيل الهدى[2] وقال أبو السعود : العرش هو الجسم المحيط بسـائر الأجسـام ، سُمِّـي بـه لارتفاعه ، أو للتشبيه بسرير الملك ، والاستواء على العرش صـفةٌ لـه سـبحانه بـلا كيف[3] ﴿يـدبِّر الأمـر﴾ أي يدبِّر أمر الخلائق على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة قال ابن عباس : لا يشغله في تدبير خلقه أحد ﴿مـا مـن شفيـعٍ إلا مـن بعـد إذنـه﴾ أي لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا بعد أن يأذن له في الشفاعة ، وفي هذا ردٌّ على المشركين في زعمهـم أن الأصنـام تشفـع لهـم ﴿ذلـكم اللـه ربـكم فاعبـدوه﴾ أي ذلكم العـظيم الشـأن هو ربـكم وخالقـكم لا ربَّ سواه ، فوحِّـدوه بالعبـادة ﴿أفـلا تذكَّـرون﴾ أي أفلا تتعظون وتعتبرون ؟ تعلمون أنه المتفـرد بالخلـق ثم تعبـدون معـه غـيره ﴿إليـه مرجعكـم جميعـاً﴾ أي إلى ربكم مرجعكم أيها الناس يوم القيامة جميعاً ﴿وعْـدَ اللـهِ حَقـاً﴾ أي وعداً من الله لا يتبدَّل،وفيه ردٌّ على منكري البعث حيث قالوا ﴿ما هي إلا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهرَ﴾ ﴿إنـه يَبْدَؤُاْ الخلـق ثـم يعيـده﴾ أي كما ابتدأ الخلق كذلك يعيده ﴿ليجـزيَ الذيـنَ آمنُوا وعملـوا الصَّالحاتِ بالقِسْـطِ﴾ أي ليجزي المؤمنين بالعدل ، ويوفِّيهم أجورهم بالجزاء الأوفى ﴿والذيـن كفـروا﴾ أي والذين جحدوا بالله وكذبوا رسله ﴿لهـم شـرابٌ من حميـم﴾ أي لهم في جهنم شرابٌ من حيمم ، بالغ النهاية في الحرارة ﴿وعـذابٌ أليم بما كانوا يكفـرون﴾ أي ولهـم عذاب موجع بسبب

(1) البيضاوي ٢٣٥ . (2) المختصر ٢/ ٢٥ وانظر توضيح المسألة في أول سورة الأعراف من هذا الكتاب . (3) أبو السعود ٢/ ٣٠٧ .

عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ

كفرهم وإشراكهم قال البيضاوي : والآية كالتعليل لما سبق فإنه لما كان المقصود من البدء والإعادة مجازاة المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة[1] ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء**﴾ الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية أي هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهّاج ﴿**والقمر نوراً**﴾ أي وجعل القمر منيراً بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد. ولما كانت الشمس أعظم جرماً خُصَّت بالضياء ، لأنه هو الذي له سطوعٌ ولَمعان قال الطبري : المعنى أضاء الشمس وأنار القمر[2] ﴿**وقدَّره منازل**﴾ أي قدَّر سيره في منازل وهي البروج ﴿**لتعلموا عدد السنين والحساب**﴾ أي لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام ﴿**ما خلق الله ذلك إلا بالحق**﴾ أي ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة ، وفائدة جليلة ﴿**يفصِّل الآيات لقوم يعلمون**﴾ أي يبيّن الآيات الكونيّة ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ، ويتدبرون حكمته قال أبو السعود : أي يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا[3] ﴿**إنَّ في اختلاف الليل والنهار**﴾ أي في تعاقبهما يأتي الليل فيذهب النهار ، ويأتي النهار فيذهب الليل ﴿**وما خلق الله في السموات والأرض**﴾ أي وما أوجد فيهما من أصناف المصنوعات ﴿**لآياتٍ لقوم يتقون**﴾ أي لآيات عظيمة وبراهين جليلة ، على وجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ،لقوم يتقون الله ويخافون عذابه ﴿**إن الذين لا يرجون لقاءنا**﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً ولا يخطر ببالهم، فقد أعمتهم الشهوات عن التصديق بما بعد المات ﴿**ورضوا بالحياة الدنيا**﴾ أي رضوا بالدنيا عوضاً من الآخرة ، وآثروا الخسيس على النفيس ﴿**واطمأنوا بها**﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إليها ﴿**والذين هم عن آياتنا غافلون**﴾ أي وهم عن الأدلة المنبثّة في صحائف الأكوان غافلون ، لا يعتبرون فيها ولا يتفكرون ﴿**أولئك مأواهم النارُ**﴾ أي مثواهم ومقامهم النار ﴿**بما كانوا يكسبون**﴾ أي بسبب كفرهم وإجرامهم ، وبعد أن ذكر الله حال الأشقياء أردفه بذكر حال السعداء فقال ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم**﴾ أي يهديهم إلى طريق الجنة بسبب إيمانهم ﴿**تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم**﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار أو من تحت أسرَّتهم وهم مقيمون في جنات النعيم ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم**﴾ أي دعاؤهم في الجنة سبحانك اللهم وفي

(١) البيضاوي ٢٣٦ . (٢) الطبري ١١/ ٨٦ . (٣) أبو السعود ٢/ ٣١٠ .

فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ * وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ

الحديث(يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النَّفس) أي كلامهم في الجنة تسبيح الله ﴿وتحيَّتُهم فيها سلام﴾ أي وتحية بعضهم بعضاً سلامٌ عليكم كما تحيِّيهم بذلك الملائكة ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم﴾ ﴿وآخرُ دعواهم أن الحمدُ للّه ربِّ العالمين﴾ أي وآخر دعائهم أن يقولوا : الحمد لله ربِّ العالمين ﴿ولو يُعجِّل اللهُ للناسِ الشرَّ استعجالهم بالخير﴾ قال مجاهد : هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب ، اللهم أهلكْه ، اللهم لا تبارك فيه قال الطبري : المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر وفيما عليهم فيه مضرَّة ، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لقُضي إليهم أجلهم﴾ أي لهلكوا وعُجِّل لهم الموت[1] ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي فنترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ أي في تمردهم وعتوهم يتردَّدون تحيراً والمعنى : نترك المجرمين ونمهلهم ونفيض عليهم النعم مع طغيانهم لتلزمهم الحجة ﴿وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الضرُّ من مرضٍ أو فقر أو نحو ذلك ﴿دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾ أي دعانا في جميع الحالات : مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً لكشف ذلك الضُر عنه ﴿فلمّا كشفنا عنه ضرَّه مرَّ كأنْ لم يدعنا إلى ضرٍّ مسَّه﴾ أي فلما أزلنا ما به من ضرّ استمرَّ على عصيانه ، ونسي ما كان فيه من الجَهْد والبلاء أو تناساه ، وهو عتابٌ لمن يدعو الله عند الضر ، ويغفل عنه عند العافية ﴿كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ أي كما زُيِّن لذلك الإنسان الدعاء عند الضرِّ والإعراضُ عند الرخاءِ ، كذلك زُيِّن للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام ، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ، ومتابعة الشهوات ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادَوا في الغيِّ والضلال ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ أي وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل ، أي أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب إهلاكهم شيئان : ظلمهم ، وعدم إيمانهم ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء - يعني الإهلاك - نجزي كل مجرم ، وهو وعيدٌ لأهل مكة على تكذيبهم

(١) الطبري ١١/ ٩١ وقال بعض المفسرين : نزلت في كفار مكة حيث قالوا ﴿اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء﴾ قال الزمخشري: يعني: لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لأميتوا وأهلكوا ا .هـ الكشاف ٢/ ٣٣٢ .

مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ

رسول الله ﷺ ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة من بعد إهلاك أولئك القرون ، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿لننظر كيف تعملون﴾ أي لننظر أتعملون خيراً أم شراً فنجازيكم على حسب عملكم قال القرطبي : والمعنى : يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل[1] وقال في التسهيل : معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة[2] والغرض أن الله تعالى عالمٌ بأعمالهم من قبل ذلك ولكن يختبرهم ليتبيَّن في الوجود ما علمه تعالى أزلاً ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، حال كونها واضحات لا لَبْس فيها ولا إشكال ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب ، ولا يرجون الأجر والثواب ﴿ائت بقرآنٍ غير هذا﴾ أي ائت يا محمد بكتابٍ آخر غير هذا القرآن ، ليس فيه ما نكرهه من عيب آلهتنا ، وتسفيه أحلامنا ، ﴿أو بدِّله﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان سب آلهتنا مدحهم ، ومكان الحرام حلالا ، وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية قال ابن عباس : نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا يا محمد : ائتنا بقرآن غير هذا فيه ما نسألك[3] ﴿قل ما يكون لي أن أبدِّله من تلقاء نفسي﴾ أي قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغيِّر أو أبدِّل شيئاً من قبل نفسي ﴿إن أتَّبع إلاَّ ما يُوحى إليَّ﴾ أي لا أتَّبع إلا ما يوحيه إليَّ ربي ، فأنا عبد مأمور ، ورسولٌ مبلِّغ ، أبلغكم رسالة الله ﴿إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم﴾ أي إني أخشى إن خالفت أمره ، وبدَّلتُ وحيه ، عذاب يومٍ شديد الهَوْل هو يوم القيامة ، وهذا كالتعليل لما سبق ﴿قل لو شاء الله ما تلوتُه عليكم﴾ أي قل لهم يا محمد لو شاء الله ما تلوتُ هذا القرآن عليكم ، وما تلوته إلا بمشيئته تعالى ، لأنه من عنده وما هو من عندي ﴿ولا أدْراكم به﴾ أي ولا أعلَمكم به على لساني ﴿فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله﴾ أي فقد مكثتُ بين أظهركم زمناً طويلاً ، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوه عليكم ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أنَّ مثل هذا الكتاب المعجز ليس إلا من عند الله ؟ قال الإمام الفخر : إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عالمين بأحواله ، وأنه ما طالع كتاباً ، ولا تتلمذ لأستاذ ، ولا تعلَّم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم ، المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الاخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء ،

(١) القرطبي ٨/ ٣١٨ . (٢) التسهيل ٢/ ٩٠ . (٣) البحر ٥/ ١٣١ .

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

والفصحاء ، والبلغاء ، وكلٌ من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل[١] ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ استفهام انكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريفﷺ حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد ﴿أو كذّب بآياته﴾ أي كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿إنه لا يفلح المجرمون﴾ أي لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجرام وكذّب الرسل الكرام ﴿ويعبدون من دونِ اللّهِ ما لا يضُرُّهُمْ ولا ينْفعُهم﴾ بيانٌ لقبائح المشركين أي ويعبدون الأوثان التي هي جمادات لا تقدر على جلب نفعٍ أو دفع ضر ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي يزعمون أن الأصنام تشفع لهم مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ ؟ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أتخبرون الله تعالى بشريكٍ أو شفيعٍ كائنٍ في السموات أو الأرض لا يعلمه جلَّ وعلا ، وهو علاّم الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات ؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزّه الله وتقدّس عما يقول الظالمون ، وينسبه إليه المشركون ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدةً فاختلفوا﴾ أي وما كان الناس إلا على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح فاختلفوا في دينهم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلُّهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعُبدت الأوثان والأصنام فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين[٢] ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربك﴾ أي ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لقُضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي لعُجِّل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين ﴿ويقولون لولا أُنزل عليه آية من ربه﴾ أي ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون هلاّ أنزل على محمد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ أي قل لهم أمر الغيب للّه وحده ولا يأتي بالآيات إلا هو وإنما أنا مبلّغ ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي فانتظروا قضاء الله بيننا فأنا ممن ينتظر ذلك .

البَلاَغَة : ١ - ﴿الكتاب الحكيم﴾ فعيل بمعنى مفعول أي المُحكم الذي لا يتطرق إليه الفساد ولا يعتريه الكذب والتناقض .

(١) الرازي ١٧/ ٥٧ . (٢) المختصر ٢/ ١٨٨ .

٢ ـ ﴿أنذر . . وبشر﴾ بينهما طباقٌ .

٣ ـ ﴿قدم صدق﴾ كناية عن المنزلة الرفيعة ، والعبارةُ غايةٌ في البلاغة لأن بالقدم يكون السبق والتقدم ، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعطى بها .

٤ ـ ﴿يبْدؤا الخلق ثم يعيده﴾ بين كلمتي البدء والإعادة طباقٌ .

٥ ـ ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ فيه التفاتٌ مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله .

٦ ـ ﴿الشرَّ استعجالهم بالخير﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم بالخير ففيه تشبيه مؤكد مجمل ، وبين الشر والخير طباقٌ .

٧ ـ ﴿لننظر كيف تعملون﴾ في الكلام استعارة تمثيلية حيث شبّه حال العباد مع ربهم بحال رعية مع سلطانها في إمهالهم للنظر في أعمالهم ،واستعير الاسم الدال على المشبَّه به للمشبَّه على سبيل التمثيل والتقريب ، ولله المثل الأعلى .

٨ ـ ﴿أفلا تعقلون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ .

فـائـدة : قال السيوطي في قوله تعالى ﴿جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾ إن هذه الآية أصلٌ في علم المواقيت ، والحساب ، والتاريخ ، ومنازل القمر .

لطيفـة : قال الحافظ ابن كثير : من قال مقالة صادقاً أو كاذباً فلا بدَّ أن يُنْصَب عليه من الأدلة على برِّه او فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمدﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وحنْدس الظلماء ، قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول اللهﷺ المدينة انجفل الناس (أي تفرق اليهود عنه) فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيتُه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما سمعته يقول (يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام) فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى من الدلائل قال حسان :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيِّنةٌ ... لكان منظرهُ يُنْبيك بالخبر

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء . . إلى . . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٩)

المنَـاسَـبَة : لما ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان ، وشبهات المشركين حول الرسالة والقرآن ، ذكر هنا أن عادة هؤلاء الأشقياء المكرُ ، والجحودُ ، والعِنَاد ، فإن أصابتهم الشدة تضرّعوا ،

وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا ، ثم ضرب تعالى المثل بالحياة الدنيا في الزوال والفناء ، ثم عاد إلى ذكر الأدلة والبراهين ، على وحدانية الله ربّ العالمين .

اللغــة : ﴿عاصف﴾ العاصف : الريح الشديدة التي تعصف بالأوراق والأشجار ، قال الفراء : يقال عصفت الريح وأعصفت أي اشتدت قال الشاعر :

إن الرياح إذا ما أعصفَتْ قَصفَتْ — عيدانَ نجدٍ ولا يَعْبأنَ بالرَّتم[1]

﴿الموج﴾ ما ارتفع من الماء فوق البحر ، سُمّي موجاً لاضطرابه ﴿زخرفها﴾ الزخرف : كمالُ حسنِ الشيء ونضارتُه ، سُمّي زخرفاً لبهجته ونضارته ﴿تغن﴾ غني بالمكان إذا أقام به وعَمره ﴿يرْهق﴾ يغشى ويعلو يقال : رهقه الذل أي غشيه ﴿قتر﴾ القتَر والقترة : الغبار الذي معه سواد قال تعالى ﴿تَرْهَقُها قَترَةٌ﴾ أي تعلوها غَبَرة جهنم ، وقيل : القتَر الغبارُ وإن لم يكن معه سواد قال الفرزدق :

متوّجٌ برداء الملك يتبعه — موجٌ ترى فوقه الراياتِ والقتَرا[2]

﴿زيّلنا﴾ فرّقنا وميّزنا ﴿تؤفكون﴾ تصرفون عن الحق إلى الباطل .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

التفسير : ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم﴾ المراد بالناس كفار مكة رُوي أن الله سلّط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد والمعنى : وإذا أذقنا هؤلاء المشركين رخاءً بعد شدة ، وخصباً بعد جدبٍ أصابهم ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا﴾ قال مجاهد : استهزاءٌ وتكذيب ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أي أعجل عقوبة على جزاء مكرهم[3] ﴿إنَّ رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ أي إنَّ الملائكة الحفظة يكتبون مكركم ويسجّلون إجرامكم ، وفيه تنبيهٌ على أن ما دبَّروه غير خاف على الحفظة فضلاً عن العليم الخبير ﴿هو الذي يسيّركم في البرِّ والبحر﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب ، وفي البحر على السفن التي تسير على وجه الماء ﴿حتى إذا كنتم في الفُلْك﴾ أي حتى إذا كنتم في البحر على ظهور هذه السفن ﴿وجرَيْنَ بهم بريحٍ طيبة﴾ فيه التفاتٌ أي وجرين بهم بالريح الليِّنة الطرية التي تسيِّر السفن ﴿وفرحوا بها﴾ أي فرح الركاب بتلك الريح الطيبة ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ أي وفجأةً جاءتها الريح الشديدة العاصفة

(١) البحر ٥/ ١٢٠.(٢) القرطبي ٨/ ٣٣١.

(٣) مكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم سماه مكراً مشاكلة لفعلهم وتسمية للعقوبة باسم الذنب .

﴿الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾

المدمِّرة ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي أيقنوا بالهلاك ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون ، قال القرطبي : وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد ، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً ، لانقطاع الأسباب ، ورجوعه إلى ربِّ الأرباب[1] ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين﴾ أي لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك ، والعاملين بطاعتك ومرضاتك قال في البحر : ومعنى الإخلاص إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها وقال الحسن : مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جارياً مجرى الإيمان الاضطراري[2] ﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي فلما خلَّصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي قال ابن عباس : يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي[3] قال تعالى رداً عليهم ﴿يأيها الناسُ إنما بغيُكم على أنفسكم﴾ أي وبالُ البغي عليكم ، ولا يجني ثمرته إلا أنتم ﴿متاعَ الحياة الدنيا﴾ أي تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية ، التي تعقبها الحسرات الباقية ﴿ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي مرجعكم بعد الموت إلينا فنجازيكم عليها ، وفي هذا وعيدٌ وتهديد . والآية الكريمة تمثيلٌ لطبيعة الإنسان الجحود ، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة ، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدة ، فإذا نجّاه الله من الضيق ، وكشف عنه الكرب ، رجع إلى الكفر والعصيان ، وتمادى في الشرِّ والطغيان . ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصر مدة التمتع بها فقال ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها ، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض قال ابن عباس : اختلط فنبت بالماء كلُّ لون[4] ﴿مما يأكلُ الناسُ والأنْعامُ﴾ أي مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول ، والأنعامُ من الكلأ والتبن والشعير ﴿حتى إذا أخذت الأرض زُخْرُفها﴾ أي أخذت حسنها وبهجتها ﴿وازَّينت﴾ أي تزينت بالحبوب والثمار والأزهار ، وهو تمثيلٌ بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب ﴿وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي وظنَّ أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها ، محصّلون لثمرتها وغلّتها ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾ أي جاءها

(١) القرطبي ٨/ ٣٢٥ .(٢) البحر ٥/ ١٣٩.(٣) نفس المرجع السابق ٥/ ١٤٠. (٤) الطبري ١١/ ١٠٢.

فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا

قضاؤ نا بهلاك ما عليها من النبات إمّا ليلاً وإمّا نهاراً ﴿فجعلناها حصيداً﴾ أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها كالذي حصد بالمناجل ﴿كأن لمْ تغن بالأمس﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمةعلى ظهر الأرض قبل ذلك ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ أي مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا نبيّن الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال قال الألوسي : وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون[1] ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ أي يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة ﴿ويهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾ أي يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام ﴿للذين أحسنوا الحُسْنى﴾ أي للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى أي الجنة ﴿وزيادة﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم[2] ﴿ولا يَرْهَقُ وجوههم قَتَرٌ﴾ أي ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار ﴿ولا ذلـة﴾ أي هوانٌ وصغار ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئةٍ بمثلها﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فعصوا الله وكفروا فسيجزون على السيئةِ بمثلها لا يزادون على ذلك ، فالحسناتُ مضاعفة بفضل الله ، والسيئات جزاؤ ها بالمثل عدلاً منه تعالى[3] ﴿وترهقهم ذلة﴾ أي تغشاهم ذلة وهوان ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه ﴿كأنما أُغشيت وجوههم قطعـاً من الليل مظلماً﴾ أي كأنما أُلبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا﴾ أي نجمع الفريقين للحساب : المؤ منين والكافرين ثم نقول للذين أشركوا بالله ﴿مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم ﴿فزيلنا بينهم﴾ أي ففرقنا وميزنا بينهم وبين المؤ منين كقوله﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ أي تبرأ منهم الشركاء وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله قال مجاهد : يُنطق الله الأوثان فتقول : ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون وما أمرناكم بعبادتنا[4] كقوله ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم

(١) روح المعاني ١١/١٠٢ . (٢) ورد هذا في حديث صحيح أخرجه مسلم . (٣) قال في الجوهرة : فالسيئات عنده بالمثل : والحسنات ضوعفت بالفضل . (٤) القرطبي ٨/ ٣٣٣ .

بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

الأسباب﴾ ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ أي تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة : حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم ﴿إنْ كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين ، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ، لأنا كنا جماداً لا روح فينا ﴿هنالك تبلواْ كل نفسٍ ما أسلفت﴾ أي في ذلك الوقت تُختبر كلُّ نفسٍ بما قدمت من خير أو شر ، وتنال جزاء ما عملت ﴿وردّوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي ردّوا إلى الله تعالى المتولي جزاءهم بالعدل والقسط ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه من أن الأوثان تشفع لهم ، وفي الآية تبكيتٌ شديدٌ للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنهم شيئاً ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ في هذه الآيات الأدلةُ على وحدانية الله وربوبيته أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من ينزل لكم الغيث والقطر ، ويخرج لكم الزروع والثمار ؟ ﴿أمَّنْ يملك السمع والأبصار﴾ أي من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم ، التي تسمعون وتبصرون بها ؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا أراد الله أن يسلبكموها؟ كقوله ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ الآية ﴿ومن يخرج الحيَّ من الميت ، ويخرج الميّت من الحي﴾؟ أي من يخرج الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والسنبلة من الحبة ، والنبات من الأرض ، والمؤمن من الكافر ؟ ﴿ومن يدبّر الأمر﴾ أي ومن يدبّر أمر الخلائق ، ويصرِّف شئون الكائنات ؟ ﴿فسيقولون الله﴾ أي فسيقرون بأن فاعل ذلك كلّه هو الله ربُّ العالمين ، إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه ﴿فقل أفلا تتقون﴾ أي قل لهم يا محمد أفلا تخافون عقابه ونقمته بإشراككم وعبادتكم غير الله ؟ ﴿فذلكم الله ربكم الحقُّ﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو ربكم الحق ، الثابت ربوبيتُه ووحدانيتُه بالبراهين القاطعة ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ استفهام انكاري أي ليس بعد الحق إلا الضلال ، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿فأنى تُصرفون﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله ، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق ، ولا يحيي ولا يميت ؟ ﴿كذلك حقت كلمة ربك﴾ أي كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق ﴿على الذين فسقوا﴾ أي على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ أي لأنهم لا يصدّقون بوحدانية الله ورسالة نبيّه، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع : هل من الأوثان والأصنام من ينشيء الخلق من العدم ثم

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾

يفنيه ، ثم يعيده ويحييه ؟ قال الطبري : ولما كانوا لا يقدرون على دعوى ذلك ، وفيه الحجة القاطعة ، والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترون . أمرﷺ بالجواب[1] ﴿قل اللهُ يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذي يحيي ويميت ، ويبدأ ويُعيد ، وليس أحدٌ من هؤلاء الآلهة المزعومة يفعل ذلك ﴿فأنّى تؤفكون﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل ؟ ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ توبيخٌ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالاً ؟ أو يهدي حائراً ؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة ؟ ﴿قل الله يهدي للحق﴾ أي فقل لهم : إن عجزتْ آلهتكم عن ذلك فالله هو القادر على هداية الضالّ ، وإنارة السبيل ، وبيان الحق ﴿أفمن يهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يُتَّبع أمَّنْ لا يهدي إلاَّ أن يُهدى﴾ أي أفمن يرشد إلى الحق وهو الله سبحانه وتعالى أحقٌّ بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً ؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلاً عن هداية غيرها[2] ؟ ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي ما لكم أيها المشركون تسوّون بين الأصنام وبين ربّ الأرباب ، وتحكمون بهذا الباطل الصُراح ؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار ، ثم بيّن تعالى فساد نحلتهم بعد أن أفحمهم بالبراهين النيرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد فقال ﴿وما يتّبع أكثرهم إلا ظناً﴾ أي وما يتبعون في اعتقادهم ألوهية الأصنام ، إلا اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان ، بل مجرد أوهام باطلة ، وخرافات فاسدة ﴿إن الظنَّ لا يغني من الحق شيئاً﴾ أي ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات ، ظنٌ كاذب لا يغني من اليقين شيئاً ، فليس الظنُّ كاليقين ﴿إن الله عليمٌ بما يفعلون﴾ أي عالمٌ بما هم عليه من الكفر والتكذيب ، وهو وعيدٌ على اتباعهم للظنّ ، وإعراضهم عن البرهان ، ثم بيَّن تعالى صدق النبوة والوحي فقال ﴿وما كان هذا القرآن أن يُفْترى من دون الله﴾ أي لا يصح ولا يعقل ، ولا يستقيم لذي عقل سليم ، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله ، لأنه فوق طاقة البشر ﴿ولكنْ تَصْديقَ الذي بينَ يديهِ﴾ أي ولكنّه جاء مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿وتفصيلَ الكتاب﴾ أي وفيه تفصيلُ وتبيينُ الشرائع والعقائد والأحكام﴿لا ريب فيه من ربِّ العالمين﴾ أي لا شك في

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري وقال بعض المفسرين : المراد الرؤساء والمضلّون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدى إلا أن يُرشدوا .
(٢) الطبري ١١/ ١١٥

﴿مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أنه تنزيل ربِّ العالمين ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه ؟ وهو استفهام معناه التقريع ﴿قل فأتوا بسورة مثله﴾ أي إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورةٍ مثل هذا القرآن ، وهو تعجيزٌ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ أي ادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه ، من الإنس والجن للاستعانة بهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه قال الطبري : والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كذبة ، لأن محمداً لن يَعْدوَ أن يكون بشراً مثلكم ، فإذا عجز الجميعُ من الخلق أن يأتوا بسورةٍ مثلِه ، فالواحد منهم أن يأتي بجميعه أعجز[1] ، قال تعالى ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ أي بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم ، وسارعوا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه ، والناس دائماً أعداء لما جهلوا ﴿ولمّا يأتهم تأويله﴾ أي والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد ﴿كذلك كذّب الذين من قبلهم﴾ أي مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر يا محمد كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم ، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿أسرع مكراً﴾ تسمية عقوبة الله مكراً من باب « المشاكلة » .

٢ ـ ﴿وجرين بهم﴾ فيه التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة وحكمته زيادة التقبيح والتشنيع على الكفار لعدم شكرهم النعمة .

٣ ـ ﴿أخذت الأرض زخرفها﴾ هذا من بديع الاستعارة شبّه الأرض حينما تتزين بالنبات والأزهار بالعروس التي تتزين بالحليّ والثياب واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف .

٤ ـ ﴿أتاها أمرنا﴾ الأمر ههنا كناية عن العذاب والدمار .

٥ ـ ﴿أحسنوا الحسنى﴾ بينهما جناس الإشتقاق .

٦ ـ ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجمل .

٧ ـ ﴿يبدأ .. ثم يعيده﴾ بينهما طباقٌ .

٨ ـ ﴿فأنّى تؤفكون﴾ الاستفهام للتوبيخ ، ومثله ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾؟

٩ ـ ﴿بين يديه﴾ استعارة لطيفة والمراد لما سبقه من التوراة والإنجيل فإنها قد بشرت به .

---

(١) الطبري ١١/١١٨.

لطيفة : يقول شهيد الإسلام « سيد قطب » في تفسيره الظلال : « ما يزال البشر يكشفون كلما اهتدوا إلى نواميس الكون عن رزق بعد رزق في السماء والأرض ، يستخدمونه أحياناً في الخير ، ويستخدمونه أحياناً في الشر ، حسبما تَسْلَم عقائدهم أو تعتل ، وكلُّه من رزق الله المسخَّر للإنسان ، فمن سطح الأرض أرزاق ، ومن جوفها أرزاق ، ومن سطح الماء أرزاق ، ومن أعماقه أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ، ومن ضوء القمر أرزاق ، حتى عفن الأرض كشف فيه العلم عن دواء وترياق[1] » وصدق الله ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ ؟

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومنهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن به . . إلى . . العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٧٠)

المناسبة : لما حكى تعالى عن الكافرين طعنهم في أمر النبوة والوحي ، ذكر هنا أنَّ منهم من يصدِّق بأن القرآن كلام الرحمن ، ولكنه يكابر ويعاند ، ومنهم من لا يصدِّق به أصلاً لفرط غباوته ، وسخافة عقله ، واختلال تمييزه . . ثم ذكر تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور ، وأعقبه بذكر مآل المشركين في الآخرة .

اللغة : ﴿ الصمَّ﴾ جمع أصمّ وهو الذي لا يسمع ﴿بياتاً﴾ ليلاً ﴿تفيضون﴾ يقال أفاض فلانٌ في الحديث إذا اندفع فيه ﴿يعزب﴾ يخفى ويغيب ﴿مثقال﴾ وزن ﴿سلطان﴾ حجة وبرهان ﴿سبحانه﴾ تنزيهٌ لله جل وعلا عن النقائص .

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ

التفسير : ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أُرسلتَ به ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ بل يموت على ذلك ويُبعث عليه ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾ أي وإن كذَّبك هؤلاء المشركون فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ أي يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرؤه وتتلوه ﴿أفأنت تُسمع الصم﴾ ؟ أي أنت يا محمد لا تقدر أن تسمع من سلبه الله السمع ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ أي ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون ؟ قال ابن كثير : المعنى ومن هؤلاء من

(١) ظلال القرآن ١١/ ١٤٥ .

تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن

يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن النافع ، ولكنْ ليس أمر هدايتهم إليك ، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله[١] ﴿ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العُمْي ولو كانوا لا يُبصرون﴾ أي ومن هؤلاء من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة ، ولكنّهم عميٌ لا ينتفعون بما رأوا ، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم ولو كانوا عُمي القلوب ؟ شبّههم بالعُمْي لتعاميهم عن الحق ، قال القرطبي : والمراد تسلية النبيﷺ أي كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به ، فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإِيمان[٢] ﴿إنَّ اللهَ لا يظلم الناسَ شيئاً﴾ أي لا يعاقب أحداً بدون ذنب ، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون ﴿ ولكنَّ الناس أنفسَهم يظلمون﴾ أي ولكنَّهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله قال الطبري : وهذا إعلامٌ من الله تعالى بأنه لم يسلب هؤلاء الإِيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم ، وإنما سلبهم ذلك لذنوب اكتسبوها ، فحقَّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم[٣] ﴿ويوم يحشرهم كأنْ لم يلبثوا إلا ساعةً من النّهار﴾ أي اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلاّ ساعة من النهار ، لهول ما يرون من الأهوال ﴿يتعارفون بينهم﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا ، وهو تعارف توبيخ وافتضاح ، يقول الواحد للآخر : أنتَ أغويتني وأضللتني ، وليس تعارف محبة ومودّة ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون الذين كذبوا بالبعث والنشور ، وما كانوا موفَّقين للخير في هذه الحياة ﴿وإمّا نُرينَّك بعضَ الـذي نعدهم أو نتوفينَّكَ فإلينا مرجعهم﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقرَّ عينك منهم فذاك ، وإن توفيناك قبل ذلك فمرجعهم إلينا في الآخرة ، ولا بدَّ من الجزاء إن عاجلاً أو آجـلاً ﴿ثم اللهُ شهيدٌ على ما يفْعَلون﴾ أي هو سبحانه شاهدٌ على أفعالهم وإجرامهم ومعاقبهم على ما اقترفوا ﴿ولكل أمةٍ رسول﴾ أي ولكل أمة من الأمم رسولٌ أرسل لهدايتهم ﴿فإذا جاء رسولهم قُضي بينهم بالقسط﴾ قال مجاهد : يعني يوم القيامة قُضي بينهم بالعدل قال ابن كثير : فكلُّ أمة تُعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتابُ أعمالها من خير وشر شاهدٌ عليها ، وحفظتُهم من الملائكة شهود أيضاً[٤] ﴿وهم لا يُظْلمون﴾ أي لا يُعذبون بغير ذنب ﴿ويقولون متى

(١) المختصر ١٩٥/٢ .(٢) القرطبي ٣٤٦/٨ .(٣) الطبري ١١/ ١٢٠ . (٤) المختصر ١٩٦/٢ .

﴿كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟

هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول كفار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً ؟ وهذا القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ أي لا استطيع أن أدفع عن نفسي ضراً ، ولا أجلب إليها نفعاً ، وليس ذلك لي ولا لغيري ﴿إلا ما شاء الله﴾ أي إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك مااستعجلتم به من العذاب ! ﴿لكل أمةٍ أجلٌ﴾ أي لكل أمة وقتٌ معلوم لهلاكهم وعذابهم ﴿إذا جاءأجلهم فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ أي فإذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون ، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾ أي قل لأولئك المكذبين أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً فما نفعكم فيه ؟ ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم أي ما أعظم ما يستعجلون به ؟ كما يقال لمن يطلب أمراً وخيماً : ماذا تجني على نفسك ﴿أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به﴾ في الكلام حذفٌ تقديره : أتؤخرون إلى أن تؤمنوا بها وإذا وقع العذاب وعاينتموه فما فائدة الإيمان وما نفعكم فيه ، إذا كان الإيمان لا ينفع حينذاك ؟ قال الطبري : المعنى أهنالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون صدّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيه التصديق[1] ﴿الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ أي يقال لكم أيها المجرمون : الآن تؤمنون وقد كنتم قبله تهزءون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب ؟ ﴿ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد﴾ أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء ﴿هل تُجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ أي هل تُجزون إلا جزاء كفركم وتكذيبكم ؟ ﴿ويستنبئونك أحقٌ هو﴾ أي ويستخبرونك يا محمد فيقولون : أحقٌ ما وعدتنا به من العذاب والبعث ؟ ﴿قل إي وربي إنه لحقٌ﴾ أي قل نعم والله إنه كائن لا شك فيه ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي لستم بمعجزين الله بهربٍ او امتناع من العذاب بل أنتم في قبضته وسلطانه[2] ﴿ولو أنَّ لكل نفسٍ ظلمت ما في الأرض﴾ أي لو أن لكل نفسٍ كافرةٍ ما في الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها ، ومنافعها قاطبة ﴿لافتدت به﴾ أي لدفعته فدية لها من عذاب الله ولكنْ هيهات أن يُقبل كما قال تعالى ﴿فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن أسفهم وندمهم ﴿وأسرُّوا الندامة لمّا رأوا العذاب﴾ أي أخفى هؤلاء الظلمة الندم لما عاينوا العذاب قال الإمام الجلال : أي أخفاها رؤساؤهم عن

(١) الطبري ١١/١٢٢. (٢) وقيل المعنى : لستم بفارين من العذاب بل هو مدرككم لا محالة ، من تفسير الطبري .

ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ

الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعيير[١] ﴿**وقُضي بينهم بالقسط**﴾ أي قُضي بين الخلائق بالعدل ﴿**وهم لا يُظلمون**﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً ، ولا يُعاقبون إلا بجريرتهم ﴿**ألا إنَّ لله ما في السموات والأرض**﴾ « ألاَ » كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام أي انتبهوا لما أقول لكم فكل ما في السموات والأرض ملكٌ لله ، لا شيء فيها لأحدٍ سواه ، هو الخالق وهو المالك ﴿**ألا إن وعد الله حقٌ**﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء حقٌ كائن لا محالة ﴿**ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون**﴾ ولكنَّ أكثر الناس لقصور عقولهم ، واستيلاء الغفلة عليهم ، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ﴿**هو يُحْيي ويُميت وإليه تُرْجعون**﴾ أي هو سبحانه المحيي والمميتُ ، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿**يا أيها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم**﴾ خطابٌ لجميع البشر أي قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظةٌ لكم من خالقكم ﴿**وشفاءٌ لما في الصدور**﴾ أي يشفي ما فيها من الشك والجهل ﴿**وهدى ورحمةٌ للمؤمنين**﴾ أي وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان قال صاحب الكشاف : *المعنى قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة ، والتنبيه على التوحيد ، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة ، ودعاء إلى الحق ، ورحمة لمن آمن به منكم*[٢] ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا**﴾ قال ابن عباس : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام[٣] والمعنى : ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله ، من القرآن والإسلام ، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿**هو خيرٌ مما يجمعون**﴾ أي هو خيرٌ مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية ، والنعيم الزائل ، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي جناح بعوضة كما ورد به الحديث الشريف ﴿**قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق**﴾ خطابٌ لكفار العرب والمعنى : أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال ﴿**فجعلتم منه حراماً وحلالاً**﴾ أي فحرمتم بعضه وحلَّلتم بعضه كالبحيرة ، والسائبة ، والميتة قال ابن عباس : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب ، والحرث والأنعام[٤] ﴿**قل ءآللهُ أذنَ لكم أم على الله تفترون**﴾ أي قل لهم يا محمد أخبروني : أحصل إذنٌ من الله لكم بالتحليل والتحريم ، فأنتم فيه ممتثلون

(١) تفسير الجلالين ٢/ ١٩٢ وقال في البحر : وإخفاء الندامة هو من كونهم بُهتوا لرؤ يتهم ما لم يحسبوه ولا خطر ببالهم ، ومعاينتهم ما أوهى قواهم ، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخاً ، كما يعرض لمن يُقدَّم للصلب لا يكاد ينبس بكلمة ، ويبقى مبهوتاً جامداً .

(٢) الكشاف ٢/ ٣٥٣.(٣) البحر ٥/ ١٧١.(٤) المختصر ٢/ ١٩٨.

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ

لأمره ، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال ؟ ﴿وما ظنُّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب فيحلون ويحرمون من تلقاء أنفسهم ، أيحسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر يوم القيامة ؟ كلاً بل سيصليهم سعيراً ، وهو وعيدٌ شديد للمفترين ﴿إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس﴾ أي لذو إنعام عظيم على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العذاب ، وبالإنعام عليهم ببعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون ﴿وما تكونُ في شأن﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أي ما تكون يا محمد في أمر من الأمور ، ولا عملٍ من الأعمال ﴿وماتتلوامنه من قرآن﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً من القرآن ﴿ولا تعملون من عمل﴾ أي ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر ﴿إلا كنّا عليكم شهوداً إذْ تُفيضون فيه﴾ أي إلا كنا شاهدين رقباء ، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها ﴿وما يعزُب عن ربك﴾ أي ما يغيب ولا يخفى على الله ﴿من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾ أي من وزن هباءة أو نملة صغيرة في سائر الكائنات أو الموجودات ﴿ولا أصغرَ من ذلك ولا اكبرَ إلا في كتابٍ مبين﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو معلوم لدينا ومسجّل في اللوح المحفوظ قال الطبري : والآية خبرٌ منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خفَّ في الوزن ، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن ، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم ، فإنّا محصوها عليكم ومجازوكم بها[1] ﴿ألا إن أولياء اللـه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي انتبهوا أيها الناس واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ، ثم بيّن تعالى هؤلاء الأولياء فقال ﴿الذين آمنواوكانوا يتقون﴾ أي الذين صدّقوا الله ورسوله ، وكانوا يتقون ربّهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فالوليُّ هو المؤمن التقيُّ وفي الحديث (إنَّ لله عباداً ما هم بأنبياءَ ولا شهداءَ ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا أخبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فلعلّنا نحبّهم ، قال : هم قومٌ تحابّوا في الله ، على غير أرحامٍ بينْهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنورٌ ، وإنهم لعلى منابرَ من نور ، لا يخافون إذا خاف الناسُ ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ﴿ألا إنَّ أولياء الله . . ﴾الآية[2]) ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ أي لهم ما يسرهم في الدارين ، حيث تبشرهم الملائكة[3] عند الاحتضار برضوان الله ورحمته ، وفي الآخرة بجنان

(١) الطبري ١١/ ١٣٠ . (٢) الطبري ١١/ ١٣٢. (٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة في الدنيا هي « الرؤ ية الصالحة » التي يراها المؤمن أو تُرى له ،وقد ورد ذلك في حديث أخرجه الحاكم ، واختار الطبري أن البشارة تكون بالرؤ ية الصالحة وببشارة الملائكة عند الموت

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

النعيم والفوز العظيم كقوله ﴿إن الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكةُ ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أي لا إخلاف لوعده ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي هو الفوز الذي لا فوز وراءه ، والظفر بالمقصود الذي لا يُضاهى ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ أي لا يحزنك ولا يؤلمك يا محمد تكذيبهم لك وقولهم : لستَ نبياً مرسلاً ، ثم ابتدأ تعالى فقال ﴿إن العزّة لله جميعاً﴾ أي القوة الكاملة ، والغلبة الشاملة ، لله وحده ، فهو ناصرك ومانعك ومعينك ، وهو المنفرد بالعزّة يمنحها أولياءه، ويمنعها أعداءه ﴿هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالهم، العليم بأعمالهم ﴿ألا إنَّ لله من في السموات ومن في الأرض﴾أي الجميع له سبحانه عبيداً وملكاً وخلقاً﴿وما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ أي وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع ، وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴿إن يتبعون إلا الظنّ﴾ أي ما يتبعون إلا ظناً باطلاً ﴿وإن هم إلا يخْرصون﴾ أي يحْدسون ويكذبون ، يظنون الأوهام حقائق ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ تنبيهٌ على القدرة الكاملة والمعنى من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته ، أن جعل لكم أيها الناس الليل راحةً لأبدانكم تستريحون فيه من التعب والنصب في طلب المعاش ﴿والنهار مبصراً﴾ أي وجعل النهار مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم ﴿إن في ذلك لآيات لقومٍ يسمعون﴾ أي لعلامات ودلالات على وحدانيَّة الله ، لقوم يسمعون سمع اعتبار ، ثم نبّه تعالى على ضلال اليهود والنصارى والمشركين فقال ﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ أي نسب اليهود والنصارى لله ولداً[1] فقالوا : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، كما قال كفار مكة : الملائكة بناتُ الله ﴿سبحانه هو الغني﴾ أي تنزَّه الله وتقدّس عما نسبوا إليه فإنه المستغني عن جميع الخلق ، فإن اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه ، والله تعالى غير محتاج إلى شيء ، فالولد منتفٍ عنه ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع خلقه وملكه ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ أي أتفترون على الله

(١) يا له من جهل وحمق ينسبون إلى العلي الأعلى ما يتزهون عنه رهبانهم ويزعمون أنهم مقدسون لا يتزوجون !!

وتكذبون بنسبه الشريك والولد ؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم . ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح ﴿متاعٌ في الدنيا﴾ أي متاعٌ قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم ﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ أي ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ أي ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله .

البَـلاَغَـة : ١ - ﴿من يؤمن به . . ومن لا يؤمن﴾ بينهما طباقُ السلب .

٢ - ﴿تسمعُ الصمّ . . تهدي العُمي﴾ الصُّمُ والعميُ مجازٌ عن الكافرين شبههم بالصُّم والعمي لتعاميهم عن الحق .

٣ - ﴿ضراً ولا نفعاً﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿بياتاً ونهاراً﴾ وبين ﴿يحيي ويُميت﴾ وبين ﴿يستقدمون . . ويستأخرون﴾ .

٤ - ﴿شفاءٌ لما في الصدور﴾ مجاز مرسل أطلق المحلَّ وأراد الحالَّ أي شفاءٌ للقلوب لأن الصدور محلُّ القلوب .

٥ - ﴿حراماً وحلالاً﴾ بينهما طباق .

٦ - ﴿والنهارَ مبصراً﴾ قال في تلخيص البيان : هذه استعارة عجيبة ، سمّى النهار مبصراً لأن الناس يبصرون فيه ، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا : ليلٌ أعمى وليلةٌ عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها[1] .

٧ - ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ استفهام توبيخ وتقريع .

فَـائِـدَة : أمر تعالى رسولهﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في هذه السورة ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾ وفي سورة سبأ ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾ وفي سورة التغابن ﴿زعم الذين كفروا أن لن يُبعثوا قل بلى وربي لتبعثنَّ﴾ ذكره ابن كثير .

تَـنْبِيـه : كلمة « أرأيتَ » تستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية ، أو العلمية ، وهذا أصل وضعها ثم استعملت بمعنى « أخبرني » فيقولون : أرأيت ذلك الأمر أي أخبرني عنه ، والرؤية إما بصرية أو علمية والتقدير : أأبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفت أمره العجيب ؟ فأخبرني عنها ، ولذا لم تستعمل في غير الأمر العجيب ، ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ ؟ ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى﴾ ؟ وهكذا .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ نوح . . إلى . . ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ من آية (٧١) إلى نهاية آية (٨٩) .

---

(١) تلخيص البيان للشريف الرضي ١٥٦ .

المناسَبَة : لما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته ، وذكر ما جرى بين الرسول ﷺ وكفار مكة ، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء ، تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره ، وقد ذكر تعالى هنا ثلاث قصص : ١ ـ قصة نوح عليه السلام مع قومه ٢ ـ قصة موسى وهارون مع الطاغية فرعون ٣ ـ قصة يونس مع قومه ، وفي كل قصة عبرةٌ لمن اعتبر ، وذكرى لمن تدبر .

اللغَة : ﴿كبُر﴾ قال الواحدي : كَبِرَ يكْبَرُ كِبَراً في السنّ ، وكبُر الأمرُ والشيءُ يكبُرُ كُبْراً وكُبَارةً إذا عظُم[1] ﴿فأجمعوا﴾ الإجماع : الإعداد والعزيمة على الأمر وأنشد الفراء :

يا ليتَ شعري والمُنى لا ينفعُ   هلْ أغدونْ يوماً وأمري مُجْمعُ[2]

﴿غمّة﴾ مبهماً من قولهم غُمَّ علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس واستتر قال طَرَفة :

لعمرك ما أمري عليَّ بِغُمَّةٍ   نهاري ولا ليلي عليَّ بسرْمَد

﴿نطبع﴾ نختم ﴿تلفتنا﴾ تصرفنا وتلوينا واللفت : الصرف عن أمرٍ وأصله اللّيُّ يقال لفت عنقه إذا لواها ﴿الكبرياء﴾ العظمة والملك والسلطان ﴿عالٍ﴾ عاتٍ متكبر ﴿المسرفين﴾ المجاوزين الحد في الضلال والطغيان ﴿اطمسْ﴾ الطمسُ : المسخ قال الزجاج : طمسُ الشيء إذهابه عن صورته ومنه عينٌ مطموسة .

* وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ

التفسِير : ﴿واتلُ عليهم نبأ نوح﴾ أي اقرأ يا محمد على المشركين من أهل مكة خبر أخيك نوحٍ مع قومه المكذبين ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبُر عليكم﴾ أي حين قال لقومه الجاحدين المعاندين يا قوم إن كان عظُم وشقَّ عليكم ﴿مقامي وتذكيري بآيات الله﴾ أي طولُ مقامي ولبثي فيكم ، وتخويفي إياكم بآيات ربكم ، وعزمتم على قتلي وطردي ﴿فعلَى الله توكّلتُ﴾ أي على الله وحده اعتمدت ، وبه وثقت فلا أبالي بكم ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ أي فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم ، ودبّروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ثم لا يكنْ أمركُم عليكم غُمَّةً﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفاً مشهوراً ، ﴿ثم اقضوا إليَّ ولا تُنْظرون﴾ أي أنْفذوا ما تريدونه في أمري ولا تؤخروني ساعة واحدة ، قال أبو السعود : وإنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة ، وثقةً بالله وبوعده من عصمته وكلاءته[3] ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر﴾ أي فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري

(١) الرازي ١٧/ ١٣٦ . (٢) القرطبي ٨/ ٣٦٣ . (٣) أبو السعود ٢/ ٣٤١ .

فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ

فليس لأني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا ، بل لشقاوتكم وضلالكم **﴿إن أجريَ إلاّ على الله﴾** أي ما أطلب ثواباً أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله ، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ من أغراض الدنيا **﴿وأُمرتُ أن أكون من المسلمين﴾** أي من الموحدين لله تعالى **﴿فكذَّبوهُ فنجّيناه ومنْ معه في الفُلْك﴾** أي فأصروا واستمروا على تكذيب نوح فنجيناه ومن معه من المؤمنين في السفينة **﴿وجعلناهم خلائف﴾** أي جعلنا من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفاً ممن غرق **﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾** أي أغرقنا المكذبين بالطوفان **﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المُنْذَرين﴾** أي انظر يا محمد كيف كان نهاية المكذبين لرسلهم ؟ والغرض : تسلية للرسولﷺ والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين **﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم﴾** أي أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً **﴿فجاءوهم بالبينات﴾** أي بالمعجزات الواضحات **﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾** أي ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل ، ولم يزجرهم عقاب السابقين **﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾** أي كذلك نختم على قلوب المجاوزين الحدَّ في الكفر والتكذيب والعناد **﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه﴾** أي بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم موسى وهارون إلى فرعون وأشراف قومه **﴿بآياتنا﴾** أي بالبراهين والمعجزات الباهرة ، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف **﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾** أي تكبروا عن الإيمان بها وكانوا مفسدين ، تعوّدوا الإجرام وارتكاب الذنوب العظام **﴿فلمّا جاءهم الحق من عندنا قالوا إنَّ هذا لسحرٌ مبين﴾** أي فلما وضح لهم الحق الذي جاءهم به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم وعنادهم : هذا سحرٌ ظاهرٌ بيِّن أراد به موسى أن يسحرنا **﴿قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم﴾** الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحرٌ ؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر **﴿أسحرٌ هذا﴾** أي أسحرٌ هذا الذي جئتكم به ؟ **﴿ولا يفلح الساحرون﴾** أي والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون **﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا﴾** أي أجئتنا لتصرفنا وتلوينا عن

عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

دين الآباء والأجداد ؟ ﴿وتكون لكما الكبرياءُ في الأرض﴾ أي يكون لك ولأخيك هارون العظمة والملك والسلطان في أرض مصر ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أي ولسنا بمصدقين لكما فيما جئتما به ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾ أي ائتوني بكل ساحر ماهر ، عليمٍ بفنون السحر ﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ في الكلام محذوف تقديره فأتوه بالسحرة فلما جاءوا قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيكم ﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحرُ﴾ أي ما جئتم به الآن هو السحرُ لا ما اتهمتموني به ﴿إن الله سيبطله﴾ أي سيمحقه وسيذهب به ويظهر بطلانه للناس ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ أي لا يصلح عمل من سعى بالفساد ﴿ويُحق الله الحق بكلماته﴾ أي يثبت الله الحق ويقوّيه بحججه وبراهينه ﴿ولو كره المجرمون﴾ أي ولو كره ذلك الفجرة الكافرون ﴿فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه﴾ أي فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه ، مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلا نفرٌ قليلٌ من أولاد بني إسرائيل قال مجاهد : هم أولاد الذين أُرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم[1] ﴿على خوفٍ من فرعون وملائهم أن يفتنهم﴾ أي على تخوف وحذر من فرعون وملأه أن يعذبهم ويصرفهم عن دينهم ﴿وإنّ فرعون لعالٍ في الأرض﴾ أي عاتٍ متكبر مفسد في الأرض ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ أي المتجاوزين الحدَّ بادعاء الربوبية ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾ أي قال لقومه لما رأى تخوف المؤمنين من فرعون يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته ﴿فعليه توكلوا﴾ أي على الله وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضُرّ ﴿إن كنتم مسلمين﴾ أي إن كنتم مستسلمين لحكم الله منقادين لشرعه ﴿فقالوا على الله توكلنا﴾ أي أجابوا قائلين : على ربنا اعتمدنا وبه وثقنا ﴿ربَّنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين﴾ أي لا تسلّطهم علينا حتى يعذبونا ويفتنونا بنا فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا ﴿ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ أي خلِّصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا

(١) اختار الإمام الجلال أن الطائفة التي آمنت بموسى هم من آل فرعون وما ذكرناه هو اختيار الطبري والجمهور وهو الأرجح .

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

لقومكما بمصر بيوتاً﴾ أي اتخذا لهم بيوتاً للصلاة والعبادة ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي اجعلوها مصلّى [1] تصلون فيها عند الخوف قال ابن عباس : كانوا خائفين فأمروا أن يصلّوا في بيوتهم[2] ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها ، بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل ﴿وبشّر المؤمنين﴾ أي بشّر يا موسى أتباعك المؤمنين بالنصر والغلبة على عدوهم ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا﴾ أي قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم ، زينةً من متاع الدنيا وأثاثها ، وأنواعاً كثيرة من المال ﴿ربَّنا ليُضلوا عن سبيلك﴾ اللام لامُ العاقبة[3] أي آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك ، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك ﴿ربَّنا اطمسْ على أموالهم﴾ دعاءٌ عليهم أي أهلكْ أموالهم يا الله وبدِّدْها ﴿واشددْ على قلوبهم﴾ أي قسِّ قلوبهم واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان قال ابن عباس : أي امنعهم الإيمان ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ النفي أي اللهمَّ فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك ، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم ، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم قال ابن عباس : كان موسى يدعو وهارون يؤمِّن فنسبت الدعوة إليهما[4] ﴿قال قد أُجيبتْ دعوتُكما﴾ أي قال تعالى قد استجبتُ دعوتكما على فرعون وأشراف قومه ﴿فاستقيما﴾ أي اثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة ﴿ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون﴾ أي لا تسلكا سبيل الجهلة في الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى ، قال الطبري : رُوي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة[5] ثم أغرق الله فرعون .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿فعلى الله توكلت﴾ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر أي على الله لا على غيره .

٢ ـ ﴿ويُحِقُّ الحقَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٣ ـ ﴿لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ عبَّر عن الالتباس والستر بالغُمة بطريق الاستعارة أي لا يكن أمركم مغطّى تغطية حيرة ومبهما فيكون كالغمة العمياء .

٤ ـ ﴿واشدد على قلوبهم﴾ الشدُّ استعارةٌ عن تغليظ العقاب ، ومضاعفة العذاب .

---

(١) وقيل : المراد اجعلوا بيوتكم موجهة إلى جهة القبلة . (٢) الطبري ١١/١٥٤ .

(٣) هذه اللام كقوله تعالى ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ وفي الخبر (لدوا للموتِ وابنوا للخراب) أي لتكون العاقبة الموت والخراب . (٤) البحر ٥/١٨٧ . (٥) الطبري ١١/١٦١ .

تــنبيــه : قال ابن كثير : دعوة موسى على فرعون كانت غضباً لله ولدينه كما دعا نوح على قومه فقال ﴿ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك﴾ ولهذا استجاب الله لموسى دعوته التي شاركه فيها أخوه هارون ، كما استجاب دعوة نوح عليه السلام .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر . . إلى . . وهو خير الحاكمين﴾ من آية (٩٠) إلى نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى دعاء موسى على فرعون لطغيانه ، ذكر هنا ما حدث لفرعون وجنوده من الإغراق في البحر نتيجة البغي والعدوان ، وأن إيمانه لم ينفعه لأنه إيمان المضطر ، ثم ذكر قصة يونس وتوبة الله تعالى على قومه ، وختم السورة الكريمة ببيان حقيقة التوحيد ، وأن الإنسان لا ينجيه عند الله إلا الإيمان .

اللغة : ﴿بوأنا﴾ أنزلنا وأسكنّا ﴿الممترين﴾ الشاكّين ، امترى : شكَّ وارتاب ﴿فلولا﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلاّ ﴿الرجس﴾ العذاب أو السخط ﴿حنيفاً﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة كلِّها ﴿يمسسك﴾ يصبك ﴿كاشف﴾ دافع ومزيل يقال : كشف السوء أي أزاله ﴿بوكيل﴾ بحفيظ موكول إليَّ أمركم .

* وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا

التفسير : ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي قطعنا وعدَّينا ببني إسرائيل البحر « بحر السويس » حتى جاوزوه ﴿فأتبعهم فرعون وجنودُه بغياً وعدواً﴾ أي لحقهم فرعونُ مع جنوده ظلماً وعدواناً وطلباً للاستعلاء بغير حق ﴿حتى إذا أدركه الغرقُ﴾ أي حتى إذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك ﴿قال آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل﴾ أي قال عندئذٍ أقررتُ وصدقتُ بأنه لا إله إلا اللهُ ربُّ العالمين ، الذي آمنت وأقرت به بنو إسرائيل ﴿وأنا من المسلمين﴾ تأكيدٌ لدعوى الإيمان أي وأنا ممَّن أسلم نفسه لله ، وأخلص في إيمانه قال ابن عباس : جعل جبريل عليه السلام في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة[1] ﴿ءآلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين﴾ أي آلآن تؤمن حين يئست من الحياة ، وقد عصيت الله قبل نزول نقمته بك ، وكنت من الغالين في الضلال والإضلال والصدِّ عن دين الله؟ ﴿فاليوم ننجّيك ببدنك﴾ أي فاليوم نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ أي لتكون عبرةً لمن بعدك من الناس ، ومن الجبابرة والفراعنة ، حتى لا يطغوا مثل طغيانك قال ابن عباس :

(١) الطبري ١١/١٦٣ والمراد بإدراك الرحمة النجاة من الغرق كما كان طلب المخذول ، قاله أبو السعود .

لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ

إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون ، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه[1] ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مُبوأ صدق﴾ أي أنزلنا وأسكنا بني إسرائيل بعد إهلاك أعدائهم منزلاً صالحاً مرضياً ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي اللذائذ الطيبة النافعة ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إنَّ ربَّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي فما اختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم وهو التوراة التي فيها حكم الله ، وهذا ذمٌ لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين ، والدينُ يجمع ولا يفرّق ، ويوحّد ولا يشتت وقال الطبري : كانوا قبل أن يُبعث محمدﷺ مجمعين على نبوته ، والإقرار بمبعثه ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم ، وآمن البعض ، فذلك اختلافهم[2] ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ هذا على سبيل الفرض والتقدير : أي إن فرض أنك شككت فاسأل قال ابن عباس : لم يشك النبيﷺ ولم يسأل وقال الزمخشري : هذا على الفرض والتمثيل كأنه قيل : فإن وقع شكٌ مثلاً ، وخيَّل لك الشيطان خيالاً تقديراً فسل علماء أهل الكتاب ، وفرقٌ عظيم بين قوله ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿فإن كنت في شك﴾ بمعنى الفرض والتمثيل[3] وقال بعضهم : الخطاب للنبيﷺ والمراد غيره ﴿فاسألِ الّذين يقرءونَ الكتابَ من قبلك﴾ أي اسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل ، فإن ذلك محقّق عندهم كما قصصنا عليك ، والغرضُ دفع الشك عن قصص القرآن ﴿لقد جاءكَ الحقُّ من ربك﴾ أي جاءك يا محمد البيانُ الحق ، والخبر الصادق ، الذي لا يعتريه شك ﴿فلا تكوننَّ من الممترين﴾ أي فلا تكن من الشاكين المرتابين ﴿ولا تكوننَّ من الذين كذّبوا بآيات الله﴾ أي لا تكذّبْ بشيءٍ من آيات الله ﴿فتكونَ من الخاسرين﴾ أي فتصبح ممن خسر دنياه وآخرته ، قال البيضاوي : وهذا من باب التهييج والتثبيت وقطع أطماع المشركين عنه[4] وقال القرطبي : الخطابُ في هاتين الآيتين للنبيﷺ والمراد غيره[5] ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب بإرادة الله الأزلية ﴿لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾ أي لا يصدقون ولا يؤمنون

(١) المختصر ٢/ ٢٠٦ . (٢) الطبري ١١/ ١٦٧ . (٣) الكشاف ٢/ ٣٧ . (٤) البيضاوي ٢٤٥ . (٥) القرطبي ٨/ ٣٨٣ .

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

أبداً ولو جاءتهم البراهين والمعجزات **﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾** أي فحينئذٍ يؤمنون كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإِيمان **﴿فلولا كانت قريةٌ آمنتْ فنفعها إيمانها﴾** أي فهلاّ كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها ، تابتْ عن الكفر وأخلصت الإِيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت **﴿إلا قوم يونس﴾** أي غير قوم يونس **﴿لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾** أي لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المخزي المهين في الحياة الدنيا **﴿ومتعناهم إلى حين﴾** أي أخرناهم إلى انتهاء آجالهم قال قتادة : رويِ أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم ، فلما فقدوا نبيَّهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المُسُوح ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندم على ما مضى منهم ، كشف الله عنهم العذاب[1] **﴿ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلُّهم جميعاً﴾** أي لو أراد الله لآمن الناس جميعاً ، ولكنْ لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة ، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار ، لا إيمان الإِكراه والاضطرار **﴿أفأنتَ تكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾** ؟ أي أفأنت يا محمد تُكره الناس على الإِيمان ، وتضطرهم إلى الدخول في دينك ؟ ليس ذلك إليك ، والآية تسليةٌ له ﷺ وترويحٌ لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم قال ابن عباس : كان النبيُّ ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس ، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذِّكر الأول ، ولا يضلُّ إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول[2] **﴿وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن الله﴾** أي ما كان لأحدٍ أن يؤمن إلا بإرادته تعالى وتوفيقه **﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾** أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله ، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع **﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار : انظروا نظر تفكر واعتبار ، ما الذي في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه ؟ **﴿وما تغني الآياتُ والنُّذر عن قوم لا يؤمنون﴾** أي وما تنفع الآيات والإِنذارات قوماً سبق لهم من الله الشقاء **﴿فهل ينتظرون إلا مثلَ أيام الذين خلوا من قبلهم﴾** أي فهل ينتظر مشركو مكة إلا مثل أيام أسلافهم ، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال ؟ **﴿قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾** أي قل لهم يا محمد : انتظروا عاقبة البغي

(١) الطبري ١١/ ١٧١ . (٢) القرطبي ٨/ ٣٨٥ .

﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

والتكذيب إني من المنتظرين هلاككم ودماركم ﴿ثم ننجّي رسلنا والذينَ آمنوا كذلك﴾ أي ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين نُنجّي الرسل والمؤمنين إنجاءً مثل ذلك الإنجاء ﴿حقاً علينا نُنْجي المؤمنين﴾ أي حقاً ثابتاً علينا من غير شك قال الربيع بن أنس : خوّفهم عذابه ونقمته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمرٌ أنجى الله رسله والذين آمنوا معه[1] ﴿قل يا أيها الناسُ إن كنتم في شكٍ من ديني﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك إن كنتم في شك من حقيقة ديني وصحته ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ أي فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿ولكنْ أعبدُ الله الذي يتوفاكم﴾ أي ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم ، وبيده محياكم ومماتكم ، قال الطبري : وهذا تعريضٌ ولحنٌ من الكلام لطيف ، وكأنه يقول : لا ينبغي لكم أن تشكّوا في ديني ، وإنما ينبغي أن تشكّوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، فأما إلهي الذي أعبده فهو الذي يقبض الخلق وينفع ويضر[2] ﴿وأُمرتُ أن أكون من المؤمنين﴾ أي وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً موحّداً لله لا أشرك معه غيره ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾ أي وأمرتُ بالاستقامة في الدين ، على الحنيفية السمحة ملةِ إبراهيم ﴿ولا تكوننَّ من المشركين﴾ أي ولا تكوننَّ ممن يشرك في عبادة ربه ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ تأكيدٌ للنهي المذكور أي ولا تعبدْ غير الله ممّا لا ينفع ولا يضر كالآلهة والأصنام ﴿فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظالمين﴾ أي فإن عبدتَ تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرضتها لعذاب الله ، والخطابُ هنا للرسول ﷺ والمراد غيره كما تقدم ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو﴾ أي وإن أراد الله إصابتك بضرٍّ فلا دافع له إلا هو وحده ﴿وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله﴾ أي وإن أراد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع ﴿يصيبُ به من يشاء من عباده﴾ أي يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي هو سبحانه الغفور لذنوب العباد ، الرحيم بأهل الرشاد ﴿قل يا أيها الناسُ قد جاءكم الحقُّ من ربكم﴾ أي جاءكم القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام ﴿فمن

(١) الطبري ١١/١٧٦ . (٢) الطبري ١١/١٧٦ .

اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي من اهتدى بالإيمان فمنفعة اهتدائه لها خاصة ﴿ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها﴾ أي ومن ضلَّ بالكفر والإعراض فوبال الضلال مقصور عليها ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ أي ولستُ بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم إنما أنا بشيرٌ ونذير ﴿واتَّبع ما يُوحى إليك﴾ أي اتَّبعْ يا محمد في جميع شئونك ما يوحيه إليك ربك ﴿واصبر حتى يحكم الله﴾ أي اصبر على ما يعتريك من مشاقّ التبليغ حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي هو سبحانه خير من يفصل في الحكومة . والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ للمشركين .

البَلاَغَة : ١ - ﴿آلآن وقد عصيتَ قبلُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار .

٢ - ﴿بوأنا . . مبوأ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٣ - ﴿كلمة ربك﴾ كناية عن القضاء والحكم الأزلي بالشقاوة .

٤ - ﴿ثم ننجي رسلنا﴾ صيغة المضارع حكاية عن الماضي لتهويل أمرها باستحضار صورتها .

٥ - ﴿ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ بينهما طباق .

٦ - ﴿وإن يمسسك الله بضر . . وإن يردك بخير﴾ بين الجملتين مقابلة لطيفة وهي من المحسنات البديعية .

٧ - ﴿فمن اهتدى . . ومن ضلَّ﴾ بينهما طباقٌ .

٨ - ﴿يحكم الله . . الحاكمين﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

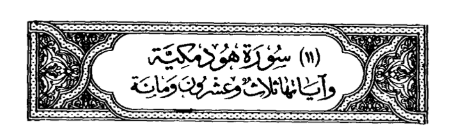
فَائِدَة : قال الإمام الفخر : آمن فرعون ثلاث مرات : أولها قوله ﴿آمنتُ﴾ وثانيها قوله ﴿لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ وثالثها قوله ﴿وأنا من المسلمين﴾ فما السبب في عدم قبول إيمانه ؟ والجواب : أنه إنما آمن عند نزول العذاب ، والإيمانُ في هذا الوقتِ غير مقبول ، لأنه يصير الحال حال الإلجاء فلا ينفع التوبة ولا الإيمان قال تعالى ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . .﴾[1]

تَنْبِيه : قال المفسرون : إنما نجّى الله بدن فرعون بعد الغرق ، لأن قوماً اعتقدوا فيه الإلهية ، وزعموا أن مثله لا يموت ، فأراد الله أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة ، ليتحققوا موته ، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمره إلى الذل والهوان ، فيكون عبرة للخلق ، وزجراً لأهل الطغيان .

«تم تفسير سورة يونس بعون الله وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين»

* * *

(١) الرازي ١٧/ ١٥٤ .



بَيْنَ يَدَي السُّورَة

* سورة هود مكية وهي تُعْنى بأصول العقيدة الإسلامية « التوحيد،الرسالة، البعث والجزاء » وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من أذى المشركين لا سيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه « أبي طالب » وزوجه « خديجة » فكانت الآيات تتنزَّل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء ، ليتأسى بهم في الصبر والثبات .

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم ، الذي أحكمت آياته ، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض ، لأنه تنزيل الحكيم العليم ، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد . . ثم عرضت لعناصر الدعوة الإسلامية ، عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين الفريقين : فريق الهدى ، وفريق الضلال ، وضربت مثلاً للفريقين وضّحت به الفارق الهائل بين المؤمنين والكافرين ، وفرقت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ﴿مثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكَّرون﴾ ؟ .

* ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة « نوح » عليه السلام أب البشر الثاني ، لأنه لم ينج من الطوفان إلا نوحٌ والمؤمنون الذين ركبوا معه في السفينة ، وغرق كل من على وجه الأرض ، وهو أطول الأنبياء عُمُراً ، وأكثرهم بلاءً وصبراً .

* ثم ذكرت قصة « هود » عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه ، تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله ، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم « عاد » العتاة المتجبرين ، الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا : من أشدُّ منا قوَّة ؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية ، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين ﴿وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد . . إلى قوله . . ألاَ إن عاداً كفروا ربهم ، ألاَ بُعداً لعادٍ قوم هود ﴾.

* ثم تلتها قصة نبيِّ الله « صالح » ثم قصة « لوط » ثم قصة « شعيب » ثم قصة « موسى وهارون » صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ثم جاء التعقيب المباشر بما في هذه القصص من العبر والعظات في

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي

إهلاك الله تعالى للظالمين ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد .. إلى قوله تعالى : وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إنَّ أخذه أليم شديد﴾ .

* وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين ، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذبين في العصور السالفة ، ولتثبيت قلب النبي عليه السلام أمام تلك الشدائد والأهوال ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين .. إلى قوله فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعلمون﴾ وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدأت به ليتناسق البدء مع الختام ! !

اللغــــة : ﴿أُحكمت﴾ الإحكام : المنعُ من الفساد يقال : أحكم الأمر إذا أتى به على وجه لا يتطرأ إليه خلل أو فساد ﴿مستقرها﴾ المكان الذي تأوي إليه في الدنيا ﴿مستودعها﴾ المكان الذي تصير إليه بعد الموت ﴿أمة معدودة﴾ الأمة هنا بمعنى المدة من الزمن أي مدة محدودة من السنين قال القرطبي : والأمَّة اسم مشترك يطلق على ثمانية أوجه : الجماعة ، الملة ، الرجل الجامع للخير ، الحين والزمن ، أتباع الأنبياء[1] الخ ﴿مرية﴾ شك وارتياب ﴿ضلَّ﴾ ضاع وتلاشى ﴿لا جرم﴾ كلمة واحدة بمعنى حقاً وهو قول الخليل وسيبويه ﴿أخبتوا﴾ خشعوا وخضعوا والإخباتُ : الذل والخضوع ﴿الأصم﴾ الذي لا يسمع وبه صمم .

سَبَبُ النّزول : ذكر القرطبي عن ابن عباس أن « الأخنس بن شريق » كان رجلاً حلو الكلام وحلو المنطق ، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء فأنزل الله ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ..﴾ الآية[2] .

التفسير : ﴿الۤر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن ، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية ، وعن ابن عباس أن معناه : أنا الله أرى ﴿كتابٌ أُحكمت آياته﴾ أي هو كتابٌ جليل القدر ، نظمت آياته نظماً محكماً ، لا يلحقه تناقضٌ ولا خلل ﴿ثم فُصِّلت﴾ أي بُيِّنت فيه أمور الحلال والحرام ، وما يحتاج إليه العباد في أمور المعاش والمعاد ﴿من لدن حكيمٍ خبير﴾ أي من عند الله فصَّلها وبيَّنها الخبير العالم بكيفيات الأمور ، ولذا كانت محكمة أحسن الإحكام ومفصلة أحسن التفصيل ﴿ألاَّ

(١) كقوله تعالى ﴿وجد عليه أمةً من الناس﴾ أي جماعة ، وقوله ﴿وادكر بعد أمة﴾ أي حينٍ من الزمن ، وقوله ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي ملة ودين الخ . (٢) القرطبي ٩/ ٥ .

فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ

تعبدوا إلا الله﴾ أي لئلا تعبدوا إلا الله **﴿إنني لكم منه نذيرٌ وبشير﴾** أي إنني مرسلٌ إليكم من جهته تعالى ، أنذركم بعذابه إن كفرتم ، وأبشركم بثوابه إن آمنتم **﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾** أي استغفروه من الذنوب وأخلصوا التوبة واستقيموا عليها بالطاعة والإنابة **﴿يمتّعْكُم متاعاً حسناً﴾** أي يمتعكم في هذه الدنيا بالمنافع الجليلة من سعة الرزق ، ورغَد العيش **﴿إلى أجلٍ مسمًّى﴾** أي إلى وقتٍ محدَّد هو انتهاء أعماركم **﴿ويؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضله﴾** أي ويعطي كل محسنٍ في عمله جزاء إحسانه **﴿وإن تولَّوْا﴾** أي وإن تتولوا عن الإيمان وتُعرضوا عن طاعة الرحمن **﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾** أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، ووصف العذاب بأنه كبير لما فيه من الأهوال الشديدة **﴿إلى الله مرجعكم﴾** أي إليه جلَّ وعلا رجوعكم بعد الموت **﴿وهو على كل شيء قدير﴾** أي قادر على إماتتكم ثم إحيائكم وعلى معاقبة من كذَّب لا يعجزه شيء ، وفي الآية تهديد عظيم **﴿ألاَ إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾** قال ابن عباس : نزلت في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف أنه ليحبه ويضمر خلاف ما يظهر[١] وقال القرطبي : أخبر عن معاداة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم[٢] والمعنى إنهم يطوون صدورهم على عداوة النبي والمؤمنين ، يريدون بذلك أن يستخفوا من الله حتى لا يفتضح أمرهم **﴿ألاَ حين يستغشون ثيابهم﴾** أي حين يتغطون بثيابهم **﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾** أي يعلم تعالى ما يُبْطنون وما يُظهرون وكأن الآية تقول : لا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله يعلم سرائركم وظواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم **﴿إنه عليمٌ بذات الصدور﴾** أي عالم بما في القلوب **﴿وما من دابةٍ في الأرض إلا على اللهِ رزقُها﴾** أي ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفّل الله برزقه تفضلاً منه تعالى وكرماً ، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق **﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾** قال ابن عباس : مستقرها حيث تأوي إليه من الأرض ، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن[٣] **﴿كلٌّ في كتابٍ مبين﴾** أي كلٌّ من الأرزاق ، والأقدار ، والأعمار ، مسطَّرٌ في اللوح المحفوظ **﴿وهو الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام﴾** أي خلقها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، وفيه الحث للعباد على التأني في الأمور فإن الإله القادر على خلق الكائنات بلمح البصر خلقها في ستة أيام

(١) البحر ٥/٢٠٢ . (٢) القرطبي ٩/٥ . (٣) البحر ٥/٢٠٤ .

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ

﴿وكان عرشه على الماء﴾ أي وكان العرش قبل خلقهما على الماء قال الزمخشري : أي ما كان تحته خلق ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض[1] ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي خلقهن لحكمة بالغة ليختبركم فيظهر المحسنُ من المسيء ، ويجازيكم حسب أعمالكم ﴿ولئن قلتَ إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾ أي ولئن قلت يا محمد لأولئك المنكرين من كفار مكة إنكم ستبعثون بعد موتكم للحساب ﴿ليقولنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾ أي ليقولنَّ الكفار المنكرون للبعث والنشور ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح مكشوف ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ أي إلى مدةٍ من الزمن قليلة ﴿ليقولُنَّ ما يحبسه﴾ أي ليقولُنَّ استهزاءً ما يمنعه من النزول ؟ ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ أي ألا فلينتبهوا فإنه يوم يأتيهم العذاب ليس مدفوعاً عنهم ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي نزل وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة﴾ أي أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة ، والأمن ، والرزق وغيرها من النعم ﴿ثم نزعناها منه﴾ أي ثم سلبنا تلك النعم منه ﴿إنه ليئوسٌ قنوط﴾ أي قنوط من رحمة الله، شديد الكفر به ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ أي ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد ما نزل به من الضر ، وما أصابه من البلاء ، كالفقر والمرض والشدة ﴿ليقولنَّ ذهب السيئات عني﴾ أي انقطع الفقر و الضيق والمصائب ولن تصيبني بعد اليوم ﴿إنه لفرحٌ فخور﴾ أي بطرٌ بالنعمة مغترٌ بها ، متعاظم على الناس بما أُوتي ، والآيةُ ذمٌ لمن يقنط عند الشدائد ، ويبطر عند النعم ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ أي هذه عادة الإنسان إلا المؤمنين الذين يصبرون على الضراء ، ويفعلون الخير في النعماء ، فهم في حالتيْ المحنة والنعمة محسنون ﴿أولئك لهم مغفرةٌ وأجر كبير﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة لهم مغفرةٌ لذنوبهم ، وأجر كبيرٌ في الآخرة هو الجنة قال في البحر : ووصف الثواب بأنه كبير وذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ، والأمن من العذاب ، ورضا الله عنهم ، والنظر إلى وجهه الكريم[2] ﴿فلعلَّك تاركٌ بعض ما يُوحى إليك﴾ كان المشركون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك ، وكانوا يستهزئون بالقرآن فقال الله تعالى له : فلعلك يا محمد تاركٌ بعض ما أُنزل

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٠ . (٢) البحر ٥/ ٢٠٦ .

أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن

إليك من ربك فلا تبلغهم إيَّاه لاستهزائهم ﴿وضائقٌ بــه صــدرك﴾ أي ويضيق صدرك من تبليغهم ما نزل عليك من ربك خشية التكذيب ، والغرضُ تحريضهُ ﷺ على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بمن عاداه ﴿أن يقولوا لـولا أُنزل عليــه كنــز﴾ أي لأجل أن يقولوا هلاّ أُنـزل عليه مالٌ كثير ﴿أو جــاء معه ملَــك﴾ أي جاء معه ملك يصدّقه كما اقترحنا ، قال تعالى محدّداً مهمته عليه السلام ﴿إنمــا أنــت نذيـر﴾ أي لست يا محمد إلامنذراً تخوّف المجرمين من عذاب الله ﴿والله علـى كل شـيء وكيـل﴾ أي قائم على شئون العباد يحفظ عليهم أعمالهم ﴿أم يقولون افتــراه﴾ أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من عند نفسه ؟ ﴿قــل فأتــوا بعشـر سُوَرٍ مثلـه مفتريــات﴾ أي إن كان الأمر كذلك فأتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات فأنتم عرب فصحاء ﴿وادعـوا من استطعتـم مـن دون اللـه﴾ أي استعينوا بمن شئتم غير الله سبحانه ﴿إن كنتــم صادقيــن﴾ في أنَّ هذا القرآن مفترى ﴿فإن لــم يستجيبوا لكـم فاعلموا أنمــا أُنزل بعلـم اللـه﴾ أي فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاونة وعجزوا عن ذلك فاعلموا أيها المشركون أنما نزل هذا القرآن بوحيٍ من الله ﴿وأن لا إلــه إلا هــو﴾ أي لا ربٌ ولا معبود إلا الله الذي أنزل هذا القرآن المعجز ﴿فهــل أنتـم مسلمــون﴾ لفظه استفهام ومعناه أمرٌ أي فأسلموا بعد ظهور هذه الحجة القاطعة إذ لم يبق لكم عذر مانع من ذلك ، قال في التسهيل : الاستفهام معناه استدعاءٌ إلى الإسلام ، وإلزامٌ للكفار أن يسلموا لما قام الدليل على صحـة الإسـلام لعجـزهـم عن الإتيان بمثـل القرآن[1] ﴿مــن كــان يريد الحيـاة الدنيا وزينتهـا﴾ أي من كان يقصد بأعماله الصالحة نعيم الدنيا فقط لأنه لا يعتقد بالآخرة ﴿نوفّ إليهـم أعمالهــم فيهـا﴾ أي نوفّ إليهم أجور أعمالهم بما يحبـون فيها من الصحة والأمن والرزق ﴿وهــم فيهـا لا يبخسـون﴾ أي وهم في الدنيا لا يُنقصون شيئاً من أجورهم قال قتادة : من كانت الدنيا همَّه ونيّته جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يُفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها ، وأما المؤمن فيُجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة[2] ﴿أولئــك الذيـن ليس لهـم في الآخرة إلا النــار﴾ أي هؤلاء الذين هدفهم الدنيا ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم وعذابها المخلَّد ﴿وحبـط

(١) التسهيل ٢/ ١٠٢ . (٢) المختصر ٢/ ٢١٤ .

قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا

ما صنعوا فيها﴾ أي بطل ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها ﴿وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾ تأكيدٌ لما سبق أي باطل ما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات ﴿أفمن كان على بيِّنةٍ من ربه﴾ أي أفمن كان على نور واضح ، وبرهان ساطع من الله تعالى ، وهو النبي ﷺ والمؤمنون ، وجوابه محذوف أي كمن كان يريد الحياة الدنيا ؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً ، وتبايناً بعيداً ، فلا يستوي من أراد الله ، ومن أراد الدنيا وزينتها ﴿ويتلوه شاهدٌ منه﴾ أي ويتبعه شاهد من الله بصدقه قال ابن عباس : هو جبريل عليه السلام ﴿ومن قبله كتابُ موسى إماماً ورحمة﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة الذي أنزله الله على موسى قدوةً في الخير ورحمة لمن نزل عليهم ﴿أولئك يؤمنون به﴾ أي أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدّقون بالقرآن حق التصديق ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنارُ موعده﴾ أي ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان ، فله نار جهنم يردها لا محالة ﴿فلا تكُ في مريةٍ منه﴾ أي فلا تكن في شكٍ من هذا القرآن ﴿إنه الحق من ربك﴾ أي إنه الحق الثابت المنزّل من عند الله ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي لا يصدّقون أنه تنزيل رب العالمين ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي لا أحد أطغى ولا أظلم ممن اختلق الكذب على الله بنسبة الشريك والولد إليه ﴿أولئك يُعرضون على ربهم﴾ أي يُعرضون يوم القيامة في جملة الخلق على خالقهم ومالكهم ﴿ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ أي ويقول الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم هؤلاء الذين كذبوا على الله ، والغرضُ فضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الأشهاد والتشهيرُ بهم خزياً ونكالاً ﴿ألا لعنةُ الله على الظالمين﴾ لظلمهم وافترائهم على الله ، واللعنةُ : الطرد من رحمة الله ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أي يمنعون الناس عن اتِّباع الحق ، وسلوك سبيل الهدى الموصل إلى الله ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي ويريدون أن تكون السبيل معوّجة أي يبغون أن يكون دين الله معوجاً على حسب أهوائهم ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي جاحدون بالآخرة منكرون للبعث والنشور ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي ليسوا مفلتين من عذاب الله وإن أمهلهم ﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو يمنعهم من عذاب الله ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ جملة مستأنفة أي يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم

كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وطغيانهم ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يُبصرون﴾ أي سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم أن الله جعل لهم سمعاً وبصراً ، ولكنهم كانوا صُماً عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه ، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواس ﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة ، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر الناس ، ولا ترى أحداً أبينَ خسراناً منهم ، لأنهم آثروا الفانية على الباقية ، واستعاضوا عن الجِنان بلظى النيران ، ثم لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء ، ذكر حال المؤمنين السعداء فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح الإخبات : وهو الاطمئنان إليه سبحانه والخشوع له والانقطاع لعبادته ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي منعّمون في الجنة لا يخرجون منها أبداً ﴿مثل الفريقين﴾ أي فريق المؤمنين وفريق الكافرين ﴿كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع﴾ قال الزمخشري : شبَّه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ، وهو من اللفّ والطباق[1] والمعنى حال الفريقين العجيب كحال من جمع بين العمى والصمم ، ومن جمع بين السمع والبصر ﴿هل يستويان مثلاً﴾ الاستفهام إنكاري أي لا يستويان مثلاً فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضيائه كحال من يخبط في ظلمات الضلالة ولا يهتدي إلى سبيل السعادة ﴿أفلا تذكّرون﴾ أي أفلا تعتبرون وتتعظون ؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإيمان ، وأهل الجحود والعصيان .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿عذاب يوم كبير﴾ إضافة العذاب إلى اليوم الكبير للتهويل والتفظيع .

٢ ـ ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿نعماء وضراء﴾ وبين ﴿نذير وبشير﴾ .

٣ ـ ﴿يئوس كفور﴾ من صيغ المبالغة أي شديد اليأس كثير الكفران .

٤ ـ ﴿كالأعمى والأصم﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل لوجود أداة التشبيه وحذف وجه الشبه أي مثل الفريق الكافر كالأعمى والأصم في عدم البصر والسمع، ومثل الفريق المؤمن كالسميع والبصير .

لطيفة : قال بعض الصالحين : الاستغفار بلا إقلاع عن الذنب توبة الكذابين[2] .

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٧ . (٢) القرطبي ٩/ ٣ .

تنبيه : التحدي بعشر سور جاء بعد التحدي بالقرآن الكريم ، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور ، ثم لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة مثله في البلاغة والفصاحة والاشتمال على المغيبات والأحكام التشريعية وأمثالها ، وهي الأنواع التسعة وقد نظمها بعضهم بقوله :

ألا إنما القرآنُ تسعةُ أحرفٍ ... سأنبيكها في بيت شعر بلا مَلَل
حلالٌ ، حرامٌ ، محكمٌ ، متشابهٌ ... بشيرٌ ، نذيرٌ ، قصةٌ ، عظةٌ ، مَثَل

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . . إلى . . فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ من آية (٢٥) إلى نهاية آية (٤٩) .

المناسبة : لما ذكر تعالى عناد الكافرين من أهل مكة ،وتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامهم له بافتراء القرآن ، ذكر هنا قصة نوح مع قومه الكافرين لتكون كالعظة والعبرة لمن كذّب وعاند ، ولتسلية الرسول ﷺ بسرد قصص المرسلين وما جرى لهم مع أقوامهم .

اللغة : ﴿الملأ﴾ أشراف القوم وسادتهم ﴿أراذلنا﴾ الأراذل هنا : المراد بهم الفقراء والضعفاء والسَّفَلة ، وهو جمع أرْذَل بمعنى السافل الذي لا خَلاَق له ولا يبالي بما يفعل ﴿فعُمِّيت﴾ عمي عن كذا ، وعمي عليه كذا ، بمعنى التبس عليه ولم يفهمه ، وخفي عليه أمره ﴿جادلتنا﴾ الجدل في كلام العرب : المبالغة في الخصومة ﴿تزدري﴾ تحتقر ﴿الفُلْك﴾ السفينة ويطلق على المفرد والجمع ﴿التنور﴾ مستوقد النار ﴿مرساها﴾ رسا الشيء يرسو ثبت واستقر ﴿عاصم﴾ مانع يقال : عصمه إذا منعه ومنه الحديث (فقد عصموا مني دماءهم) ﴿غيض﴾ غاض الماء نقص بنفسه وغضتُه أنقصته ﴿الجودي﴾ جبلٌ بقرب المَوْصل .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا

التفسير : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ أي أرسلناه رسولاً إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشرورهم ﴿إني لكم نذيرٌ مبين﴾ أي بأني منذرٌ لكم ومخوِّف من عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله﴾ أي أرسلناه بدعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غيره عذاب يوم شديد مؤلم ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي قال السادة والكبراء من قوم نوح ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ أي ما نراك إلا واحداً مثلنا ولا فضل لك علينا قال الزمخشري : وفيه تعريضٌ بأنهم أحقُّ منه بالنبوة ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم[١] ﴿وما نراك اتَّبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ أي وما اتبعك إلا سفلةُ الناس قال في التسهيل : وإنما

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٨ .

بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ

وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه ، وليس الأمر كذلك ، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم[1] ﴿باديَ الرأي﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تفكر أو رويّة ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أي وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوة ، واستحقاق المتابعة ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه ، أرادوا أن يحجوا نوحاً من وجهين : أحدهما : أن المتبعين له أراذل القوم ليسوا قدوة ولا أسوة ، والثاني : أنهم مع ذلك لم يتروّوا في اتّباعه ، ولا أمعنوا الفكر في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا رويّة ، وغرضُهم ألا تقوم الحجة عليهم بأن منهم من آمن به وصدّقه ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنةٍ من ربي﴾ تلطف معهم في الخطاب لاستمالتهم إلى الإيمان أي قال لهم نوح : أخبروني يا قوم إن كنتُ على برهان وأمرٍ جليٍّ من ربي بصحة دعوايَ ﴿وآتاني رحمةً من عنده﴾ أي ورزقني هداية خاصة من عنده وهي النبوة ﴿فعُمِّيَتْ عليكم﴾ أي فخفي الأمر عليكم لاحتجابكم بالمادة عن نور الإيمان ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ أي أنكرهكم على قبولها ونجبركم على الإهتداء بها والحال أنكم كارهون منكرون لها ؟ والاستفهام للإنكار أي لا نفعل ذلك لأنه لا إكراه في الدين﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً ، ولا أطلب على النصيحة مالاً حتى تتهموني ﴿إن أجريَ إلا على الله﴾ أي ما أطلب ثوابي إلا من الله فإنه هو الذي يثيبني ويجازيني ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ أي ولست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي ، ولا بطاردهم عني كما طلبتم ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ أي إنهم صائرون إلى ربهم ، وفائزون بقربه فكيف أطردهم ؟ ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ أي ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم ، وتظنون أنكم خير منهم ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ أي من يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم وطردتهم ؟ ﴿أفلا تذكّرون﴾ أي أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه ؟ ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أي لا أقول لكم عندي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لغناي ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي ولا أقول لكم إني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية ﴿ولا أقول إني مَلَك﴾ أي ولا أقول لكم إني من الملائكة أرسلت

---

(١) التسهيل ١٠٣/٢ .

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

إليكم فأكون كاذباً في دعواي ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينُكم لن يؤتيَهم اللهُ خيراً﴾ أي ولا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي واحتقرتموهم لفقرهم لن يمنحهم الله الهداية والتوفيق ﴿اللهُ أعلم بما في أنفسهم﴾ أي أعلم بسرائرهم وضمائرهم ﴿إني إذاً لمن الظالمين﴾ أي إني إن قلت ذلك أكون ظالماً مستحقاً للعقاب ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرتَ جدالنا﴾ أي قال قوم نوح لنوحٍ عليه السلام : قد خاصمتنا فأكثرتَ خصومتنا ﴿فأْتِنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي فائتنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقاً في ما تقول ﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ أي أمر تعجيل العذاب إليه تعالى لا إليَّ فهو الذي يأتيكم به إن شاء ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي ولستم بفائتين الله هرباً لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردتُ أن أنصح لكم﴾ أي ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم ﴿إن كان الله يريدُ أن يغويكم﴾ أي إن أراد الله إضلالكم وهو جواب لما تقدم والمعنى ماذا ينفع نصحي لكم إن إراد الله شقاوتكم وإضلالكم ؟ ﴿هو ربكم وإليه تُرجعون﴾ أي هو خالقكم والمتصرف في شئونكم ، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على أعمالكم ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي أيقول كفار قريش اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه[1] ﴿قل إن افتريتُه فعليَّ إجرامي﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليَّ وزري وذنبي ، ولا تؤاخذون أنتم بجريرتي ﴿وأنا بريء مما تُجْرِمون﴾ أي وأنا بريءٌ من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم ، والآية اعتراضٌ بين قصة نوح للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة كموقف المشركين من قوم نوح في العناد والتكذيب ﴿وأوحي إلى نوحٍ أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن﴾ أي أوحى الله إلى نوحٍ أنه لن يتبعك ويصدِّق برسالتك إلا من قد آمن من قبل ﴿فلا تبتئسْ بما كانوا يفعلون﴾ أي فلا تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم ﴿واصنع الفُلْك بأعيننا﴾ أي اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا ﴿ووحينا﴾ أي وتعليمنا لك قال مجاهد : أي كما نأمرك ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي لا تشفع فيهم

(١) هذا رأي أكثر المفسرين ، وذهب ابن عطية وأبو حيان إلى أن الآية من جملة قصة نوح وأن الضمير عائد إلى قوم نوح والمعنى أيقولون افترى نوح هذه الأخبار الخ .

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ

فإني مهلكهم لا محالة ﴿إنهم مُغْرقون﴾ أي هالكون غرقاً بالطوفان ﴿ويصنعُ الفُلْك﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ لاستحضارها في الذهن أي صنع نوحُ السفينة كما علّمه ربُّه ﴿وكلما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه﴾ أي كلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزءوا منه وضحكوا وقالوا : يا نوحُ كنتَ بالأمس نبياً ، وأصبحتَ اليوم نجاراً !! ﴿قال إن تسخروا منّا﴾ أي إن تهزءوا منا اليوم ﴿فإنّا نسخر منكم كما تسخرون﴾ أي فإنّا سنسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون مثل سخريتكم منا الآن ، فأنتم أولى بالسخرية والاستهزاء ﴿فسوف تعلمون﴾ وعيدٌ وتهديد أي سوف تعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء ﴿من يأتيه عذابٌ يخزيه﴾ أي عذابٌ يُذلُّه ويهينه وهو الغرق ﴿ويحلُّ عليه عذابٌ مقيم﴾ أي وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب جهنم ﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ أي جاء أمرنا الموعود بالطوفان ﴿وفار التنور﴾ أي فار الماء من التنور الذي يوقد به النار قال العلماء : جعل الله ذلك علامة لنوح وموعداً لهلاك قومه ، وقال ابن عباس : التنور وجهُ الأرض قال الطبري : والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض ، قيل له : إذا رأيتَ الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك[1] في السفينة وقال ابن كثير : التنور وجه الأرض أي صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماءً ، وهذا قول جمهور السلف والخلف[2] ﴿قلنا احملْ فيها من كلٍ زوجين اثنين﴾ أي احمل في السفينة من كل صنفٍ من المخلوقات اثنين : ذكراً ، وأنثى ﴿وأهلَكَ إلا من سبَقَ عليه القولُ﴾ أي واحمل قرابتك أيضاً أولادكَ ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه ، والمراد به ابنهُ الكافر « كنعان » وامرأته « واعلة » ﴿ومن آمن﴾ أي واحمل معك من آمن من أتباعك ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ أي وما آمن بنوح إلا نزرٌ يسير مع طول إقامته بينهم وهي مدة تسعمائة وخمسين سنة ، قال ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة[3] ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجْريٰها ومُرْساها﴾ أي وقال نوح لمن آمن به اركبوا في السفينة، باسم الله يكون جريُها على وجه الماء ، وباسم الله يكون رسوُّها واستقرارها قال الطبري : المعنى بسم الله حين تجري وحين تُرسي ، أي حين تسير وحين تقف[4] ﴿إنَّ ربي لغفور رحيم﴾ أي ساتر لذنوب التائبين ، رحيمٌ بالمؤمنين حيث نجاهم من الغرق ﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال﴾ أي والسفينة تسير بهم وسط الأمواج ، التي هي كالجبل في العِظَم والارتفاع ، بإذن الله وعنايته ولطفه قال الصاوي : رُوي أن الله أرسل المطر

(١) بعد أن ذكر الإمام الطبري أقوال السلف في المراد بالتنور قال : وأولى هذه الأقوال عندنا قولُ من قال : هو التنور الذي يخبز فيه لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر . انظر الطبري ١٢/٤٠ . (٢) المختصر ٢/ ٢٢٠ .
(٣) مختصر ابن كثير ٢/٢٢٠ . (٤) الطبري ١٢/ ٤٤ .

فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

أربعين يوماً وليلة ، وخرج الماء من الأرض ينابيع كما قال تعالى ﴿ففتحنا أبواب السماء بماءٍ مُنْهمرٍ وفجَّرنا الأرضَ عُيوناً فالتقى الماءُ على أمرٍ قَدْ قُدر﴾ وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعاً حتى أغرق كل شيء[١] ﴿ونادى نوحٌ ابنه وكانَ في مَعْزل﴾ أي ونادى نوحٌ ولده « كنعان » قبيل سير السفينة وكان في ناحيةٍ منها لم يركب مع المؤمنين ﴿يا بُنيَّ اركبْ معنا﴾ أي اركب معنا ولا تهلكْ نفسك بالغرق ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ أي فتغرق كما يغرقون ﴿قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء﴾ أي سأصعد إلى رأس جبل أتحصن به من الغرق ، ظناً منه أن الماء لا يصل إلى رءوس الجبال ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أي قال له أبوه نوح : لا معصوم اليوم من عذاب الله ولا ناجي من عقابه إلا من رحمه الله ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ أي حال بين نوحٍ وولده موجُ البحر فغرق ﴿وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك﴾ أي انشقي وابتلعي ما على وجهك من الماء ﴿ويا سماءُ أقلعي﴾ أي أمسكي عن المطر ﴿وغيضَ الماءُ﴾ أي ذهب في أغوار الأرض قال مجاهد : نقص الماء ﴿وقُضي الأمرُ﴾ أي تمَّ أمر الله بإغراق من غرق ، ونجاة من نجا ﴿واستوت على الجودي﴾ أي استقرت السفينة على جبل الجودي بقرب الموصل ﴿وقيل بعداً للقوم الظـالمين﴾ أي هلاكاً وخساراً لمن كفر بالله وهي جملة دعائية قال الألوسي : ولا يخفى ما في الآية من الدلالة على عموم هلاك الكفرة ، بل على عموم هلاك أهل الأرض ما عدا أهل السفينة ، ويدل عليه ما رُوي أن الغرقَ أصاب امرأة معها صبيٌ لها فوضعتـه على صدرها ، فلما بلغها الماء وضعته على منكبها ، فلما بلغها الماء رفعته بيديها ، فلو رحم الله أحداً من أهل الأرض لرحمها[٢] ﴿ونادى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ إن ابني من أهلي﴾ أي نادى نوح ربَّه متضرعاً إليه فقال : ربِّ إن ابني « كنعان » من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿وإنَّ وعدكَ الحقُّ﴾ أي وعدك حقٌ لا خُلْف فيه ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ أي وأنت يا ألله أعدل الحاكمين بالحق ﴿قال يا نوحُ إنه ليسَ من أهلِك﴾ أي قال له ربه : يا نوحُ إنَّ ولدك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم لأنه كافر ولا ولاية بين المؤمن والكافر ﴿إنه عملٌ غيرُ صالح﴾ أي إنَّ عمله سيءٌ غيرُ صالح ﴿فلا تسألْنِ ما ليس لك به علم﴾ أي لا تطلب مني أمراً لا تعلم أصوابٌ هو أم غـير صواب ؟ ﴿إنـي أعظـك أن تكون من

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٢١٦ . (٢) روح المعاني ١٢/ ٦٢ .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

الجاهلين﴾ أي إني أنبهك وأنصحك خشية أن تكون من الجاهلين قال في التسهيل : وليس في ذلك وصفٌ له بالجهل ، بل فيه ملاطفةٌ وإكرام[1] **﴿قال ربِّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾** أي قال نوح معتذراً إلى ربه عمّا صدر عنه: ربِّ إني أستجير بك من أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله **﴿وإلا تغفرْ لي وترحمني أكنْ من الخاسرين﴾** أي وإلا تغفر لي زلتي ، وتتداركني برحمتك ، أكنْ ممن خسر آخرته وسعادته **﴿قيل يا نوح اهبط بسلامٍ منا﴾** أي اهبط من السفينة بسلامة وأمن **﴿وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممن معك﴾** أي وخيراتٍ عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة ، قال القرطبي : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة[2] **﴿وأممٌ سنمتعهم﴾** أي وأمم أخرى من ذرية من معك نمتعهم متاع الحياة الدنيا وهم الكفرة المجرمون **﴿ثم يمسُّهم منا عذاب أليم﴾** أي ثم نذيقهم في الآخرة العذاب الأليم وهو عذاب جهنم **﴿تلك من أنْباء الغيب﴾** أي هذه القصة وأشباهها من أخبار الغيوب السالفة التي لم تشهدها **﴿نوحيها إليك﴾** أي نعلمك بها يا محمد بواسطة الوحي **﴿ما كنتَ تعلمُها أنتَ ولا قومُك من قبلِ هذا﴾** أي لم يكن عندك ولا عند أحدٍ من قومك علمٌ بها من قبل هذا القرآن **﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾** أي فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة كما صبر نوح ، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله ، وفيه تسلية له ﷺ على أذى المشركين .

البَــلاَغَــة : ١ ـ **﴿فعُمِّيَتْ عليكم﴾** شبّه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه ، بمن سلك مفازةً لا يعرف طرقها ومسالكها ، واتبع دليلاً أعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية .

٢ ـ **﴿أفلا تذكَّرون﴾** الاستفهام للإنكار والتقريع .

٣ ـ **﴿فائتنا بما تعدنا﴾** الأمر يراد به التهكم والاستهزاء .

٤ ـ **﴿فعليَّ إجرامي﴾** مجاز بالحذف أي عقوبة إجرامي وجاء بـ **﴿إنْ﴾** الدالة على الشك لبيان أنه على سبيل الفرض **﴿إن افتريته﴾** بخلاف إجرامهم فإنه محقّق **﴿وأنا بريءٌ مما تُجْرِمون﴾** .

٥ ـ **﴿واصنع الفُلْك بأعيننا﴾** الأعين كناية عن الرعاية والحفظ يقال للمسافر « صحبتك عين الله » أي رعاية الله وحفظه .

---

(١) التسهيل ٢/١٠٦ . (٢) القرطبي ٩/٤٨ .

٦ ـ ﴿يا أرضُ ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾ بين الأرض والسماء طباقٌ ، وبين ابلعي وأقلعي جناسٌ ناقص ، وكلاهما من المحسنات البديعية .

فَائِدَة : قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿إنه ليس من أهلك﴾ كان ابنه من صلبه ، ولكنه لم يكن مؤمناً ، وما بغت امرأة نبيٍّ قط ومعنى الآية : إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك[1] .

أقول : نبهت الآية على أن أهله هم الصلحاء ، أهل دينه وشريعته ، فمن لا صلاح له لا نجاة له ، ومدار الأهلية القرابة الدينية ، لا القرابة البدنية .

أبـي الإسـلام لا أبَ لي سواه إذا افتخـروا بقيسٍ أو تميم

لطيفَة : روي أن أعرابياً سمع هذه الآية ﴿وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي . .﴾ الآية فقال : هذا كلام القادرين لا يشبه كلام المخلوقين ، ويروى أن « ابن المقفع » ـ وكان أفصح أهل زمانه ـ رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً ، وجعله مفصلاً ،وسمّاه سوراً ، فمرَّ يوماً بصبي فسمعه يقرأ الآية فرجع إلى بيته ومحا ما كان قد بدأ به ، وقال : أشهد أن هذا لا يُعارض أبداً ، وما هو من كلام البشر[2] .

تَنبيه : هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها ، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يضيق عنه نطاق البيان ، وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلاّمة أبو حيان حيث قال رحمه الله وطيَّب ثراه : في هذه الآية أحدٌ وعشرون نوعاً من البديع : المناسبةُ في قوله ﴿أقلعي وابلعي﴾ والمطابقةُ بذكر الأرض والسماء ، والمجازُ في ﴿يا سماء﴾ المراد مطر السماء ، والاستعارةُ في ﴿أقلعي﴾ والإشارة في ﴿وغيضَ الماءُ﴾ فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة ، والتمثيلُ في ﴿وقُضي الأمر﴾ عبّر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين ، والإرداف في ﴿واستوت على الجودي﴾ فلفظ واستوت كلام تامٌ أردفه بلفظ ﴿على الجودي﴾ قصداً للمبالغة في التمكن بهذا المكان ، والتعليلُ في ﴿وغيض الماءُ﴾ فإنه علة للاستواء ، والاحتراسُ في ﴿بعداً للقوم الظالمين﴾ وهو أيضاً ذم لهم ، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمَّة ، وعدَّد بقية الوجوه وهي : الإيضاحُ ، والمساواة ، وحسنُ النَّسق ، وصحة التقسيم ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والتسهيم ، والمقابلة ، والتهذيب ،والوصف[3] .

« مقتطفات من تفسير سيد قطب في ظلال القرآن »

وننقل هنا فقراتٍ من تفسير شهيد الإسلام « سيد قطب » عليه الرحمة والرضوان حيث قال ما نصه :

(١) الطبري ١٢/ ٥١ . (٢) روح المعاني ١٢/ ٦٣ . (٣) النهر المادّ من البحر ٥/ ٢٢٧ .

« وعند هذا المقطع من قصة نوح يلتفت السياقُ لفتةً عجيبة ، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة التي تشبه أن تكون قصتَّهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن محمداً يفتري هذا القصص ﴿أم يقولون افتراه ؟ قل إن افتريتُه فعليَّ إجرامي وأنا بريءٌ مما تجرمون﴾ فالافتراء إجرام وعليَّ تبعته ، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعدٌ أن أرتكبه ، وهذا الاعتراضُ لا يخالف سياق القصة في القرآن لأنها إنما جاءت لتأدية غرضٍ معيَّن ، ثم يمضي السياقُ في قصة نوح يعرض مشهداً ثانياً ، مشهد نوح يتلقى وحي ربه وأمره ﴿وأُوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قدآمن فلا تَبْتَئِس بما كانوا يفعلون. واصنع الفُلك بأعيننا ووحينا﴾ أي برعايتنا وتعليمنا ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ فقد تقرر مصيرهم ، وانتهى الإنـذار ، وانتهى الجدل . والمشهد الثالث من مشاهد القصة : مشهدُ نوح يصنع الفلك ﴿ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه﴾ والتعبير بالمضارع هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدَّته ، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير ، وقومه المتكبرون يمرون به فيسخرون ، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول ، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً ، والمشهد الرابع : مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين . . ﴾ ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان ﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال . . . وحال بينهما الموجُ فكان من المغرقين﴾ إن الهول هنا هولان : هولٌ في الطبيعة الصامتة ، وهولٌ في النفس البشرية يلتقيان . وإننا بعـد آلاف السنين لنمسك أنفسنا ـ ونحن نتابع السياق ـ والهولُ يأخذنا كأننا نشهد المشهد ، ﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال﴾ ونوحٌ الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء ، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعةٍ خاطفة راجفة ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ وينتهي كل شيء ، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب ، وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن . وتهدأ العاصفة ، ويخيِّم السكون ، ويقضى الأمر ، ويوجه الخطاب إلى الأرض والسماء بصيغة العاقل ، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل ، فتبلع الأرض وتكف السماء ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ ».

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً ... إلى . . رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾

من آية (٥٠) إلى نهاية آية (٧٣) .

المنَاسَبَة : هذه هي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة هود مع قومه عاد ، وقد ذكرها تعالى بالإسهاب ، ولهذا سميت السورة « سورة هود » ثم أعقبها بالحديث عن ثمود وهي القصة الثالثة في هذه السورة ، ثم قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له بإسحاق وهي القصة الرابعة .

اللغــة : ﴿مدراراً﴾ كثيراً متتابعاً من درَّت السماء تدرُّ إذا سكبت المطر بسخاء ، والمدرارُ : الكثير الدرّ وهو من أبنية المبالغة ﴿اعتراك﴾ أصابك ﴿ناصيتها﴾ الناصيةُ : منبت الشعر في مقدم الرأس ﴿جبار﴾ الجبار : المتكبر ﴿عنيد﴾ العنيد : الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ، قال أبو عبيدة : العنيد والمعاند: المعارضُ بالخلاف ﴿استعمركم فيها﴾ جعلكم عمَّارهـا وسكانها ﴿تخسير﴾ تضليل وإبعاد عن الخير ﴿حنيذ﴾ مشوي يقال : حنذتُ الشاة أحنِذُها حنْذاً أي شويتها ﴿نكِرهم﴾ أنكرهم يقال : نكره وأنكره واستنكره بمعنى واحد وهو أن يجده على غير ما عهده قال الشاعر :

وأنكرتْنــي ومــا كان الــذي نكِرت ... من الحـوادث إلا الشيبَ والصَّلَعا[1]

فجمع الشاعر بين اللغتين ﴿أوجس﴾ استشعر وأحسَّ ﴿بعلي﴾ زوجي .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ

التفسـير : ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد نبياً منهم اسمه هود ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي اعبدوا الله وحده دون الآلهة والأوثان ﴿ما لكم من إله غيره﴾ أي ليس لكم معبودٌ غيره يستحق العبادة ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ أي ما أنتم في عبادتكم غير الله إلا كاذبون عليه جل وعلا ، لأنه لا إله سواه ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي لا أطلب منكم على النصح والبلاغ جزاءً ولا ثواباً ﴿إن أجريَ إلا على الذي فطرني﴾ أي ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أتغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاءٍ منكم هو لكم ناصح أمين ؟ والاستفهام للإنكار والتقريع ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ أي استغفروه من الكفر والإشراك ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والإستقامة على دينه والتمسك بالايمان والتوحيد ﴿يرسل السماء عليكم مِدْرارا﴾ أي يرسل عليكم المطر غزيراً متتابعاً ، رُوي أن عاداً كان حُبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون ، فأمرهم هودٌ بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر ، وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار ، سببٌ للرحمة ونزول الأمطار ﴿ويزدكم قوةً إلى قوتكم﴾ أي ويزدكم عزاً وفخاراً فوق عزكم وفخاركم قال مجاهد : شدة إلى شدتكم[2] ، فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش حتى قالوا ﴿من أشدُّ منا قوة﴾ ؟ ﴿ولا تتولـوا مجرمين﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه مصرّين على الإجرام ، وارتكاب الآثام ﴿قالوا يا هودُ ما جئتنا ببينة﴾ أي ما جئتنا بحجةٍ واضحة تدل على صدقك قال الآلوسي : وإنما قالوه لفرط عنادهم ، أو لشدة

(١) القرطبي ٩/ ٦٦ . (٢) الطبري ١٢/ ٥٨ .

وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

عَماهم عن الحق[1] ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ أي لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك ﴿وما نحن لك بؤمنين﴾ أي لسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك ، والجملة تقنيطٌ من دخولهم في دينه ، ثم نسبوه إلى الخبل والجنون فقالوا ﴿إن نقول إلا اعتراك بعضُ آلهتنا بسوء﴾ أي ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون لما سببتها ونهيتنا عن عبادتها قال الزمخشري : دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاةً ، غلاظ الأكباد ، لا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد ، وقد دلَّ قولهم الأخير على جهلٍ مفرط ، وبلَهٍ متناهٍ ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم[2] ﴿قال إني أُشْهدُ اللَّهَ﴾ أي قال هودٌ إني أُشهدُ الله على نفسي ﴿واشهدوا أني بريءٌ مما تشركون من دونه﴾ أي وأشهدكم أيضاً أيها القوم بأنني بريءٌ مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تُنْظرون﴾ أي فاحتالوا في هلاكي أنتم وآلهتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين قال أبو السعود : وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد ، وقد حقّرهم وهيّجهم بانتقاص آلهتهم ، وحثهم على التصدّي له فلم يقدروا على مباشرة شيء ، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً[3] وقال الزمخشري : من أعظم الآيات أن يُواجه بهذا الكلام رجلٌ واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوسٍ واحدة ، وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم ، ومثله قول نوح ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾[4] ﴿إني توكلتُ على الله ربي وربكم﴾ أي إني لجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى مالكي ومالككم ﴿ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها﴾ أي ما من نسمةٍ تدبُّ على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت قهره ، والأخذُ بالناصية تمثيلٌ للملك والقهر ، والجملةُ تعليلٌ لقوة توكله على الله وعدم مبالاته بالخلق ﴿إنَّ ربي على صراطٍ مستقيم﴾ أي إن ربي عادل ، يجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لا يظلم أحداً شيئاً ﴿فإن تولَّوْا فقد أبلغتُكم ما أُرسلتُ به إليكم﴾ أي فإن تُعرضوا عن قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي ، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ويستخلفُ ربي قوماً غيركم﴾ أي فسوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم ، وهذا وعيدٌ شديد ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ أي لا تضرون الله شيئاً بإشراككم ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ أي إنه سبحانه رقيبٌ على كل شيء ، وهو يحفظني من شركم ومكركم ﴿ولما

(١) الألوسي ١٢/ ٨١ . (٢) الكشاف ٢/ ٤٠٣ . (٣) أبو السعود ٣/ ١٥ . (٤) الكشاف ٢/ ٤٠٣ .

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ * وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا

جاء أمرنا﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب ، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم **﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا﴾** أي نجينا من العذاب هوداً والمؤمنين بفضلٍ عظيم ونعمة منا عليهم **﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾** أي وخلصناهم من ذلك العذاب الشديد ، وهي الريح المدمرة التي كانت تهدم المساكن ، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم ، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخلٍ خاوية **﴿وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم﴾** الإشارة لآثارهم أي تلك آثار المكذبين من قوم عاد انظروا ماذا حلّ بهم ، حين كفروا بالله ، وأنكروا آياته في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته ؟ **﴿وعصوا رسله﴾** أي عصوا رسوله هوداً ، وجمعه تفظيعاً لحالهم ، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد **﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾** أي أطاعوا أمر كل مستكبر على الله ، حائدٍ عن الحق ، لا يُذعن له ولا يقبله ، يريد به الرؤساء والكبراء **﴿وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً﴾** أي وأُلحقوا باللعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا **﴿ويوم القيامة﴾** أي ويوم القيامة أيضاً تلحقهم اللعنة قال الرازي : جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة ، ومعنى اللعنة الإبعادُ من رحمة الله تعالى ومن كل خير[1] **﴿ألاَ إنَّ عاداً كفروا ربهم﴾** هذا تشنيعٌ لكفرهم وتهويلٌ بحرف التنبيه وبتكرار اسم عاد أي ألا فانتبهوا إنَّ عاداً كفروا بربهم إذْ عبدوا غيره ، وجحدوا نعمته إذ كذبوا رسوله ، فاستحقوا اللعنة في الدنيا ، واللعنة في الآخرة **﴿ألا بعداً لعادٍ قوم هود﴾** أي أبعدهم الله من الخير ، وأهلكهم عن بكرة أبيهم ، وهي جملة دعائية بالهلاك واللعنة **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾** أي ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود نبياً منهم وهو صالح عليه السلام **﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره﴾** أي اعبدوا الله وحده ليس لكم ربٌّ معبود سواه **﴿هو أنشأكم من الأرض﴾** أي هو تعالى ابتدأ خلقكم من الأرض ، فخلق آدم من تراب ثم ذريته من نطفة **﴿واستعمركم فيها﴾** أي جعلكم عمّارها وسكانها تسكنون بها **﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾** أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة **﴿إن ربي قريبٌ مجيب﴾** أي إنه سبحانه قريب الرحمة مجيب الدعاء **﴿قالوا يا صالحُ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾** أي كنا نرجو أن تكون فينا سيّداً قبل تلك المقالة فلما قلتها انقطع رجاؤنا فيك **﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبدُ آباؤنا﴾** أي أتنهانا يا صالح عن عبادة الأوثان التي عبدها آباؤنا ؟ **﴿وإننا لفي شكٍ مّما تدعونا إليه مريب﴾** أي وإننا لشاكون في

---

(١) الفخر الرازي ١٨/ ١٦ .

﴿لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾

دعواك ، وأمرك مريب يوجب التهمة ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي﴾ أي أخبروني إن كنتُ على برهانٍ وحجة واضحةٍ من ربي ﴿وآتاني منه رحمة﴾ أي وأعطاني النبوة والرسالة ﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله إن عصيت أمره ؟ ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ أي فما تزيدونني بموافقتكم وعصيان أمر الله غير تضليل وإبعاد عن الخير قال الزمخشري : ﴿غير تخسير﴾ يعني تخسّرون أعمالي وتبطلونها[1] ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ أضاف الناقة إلى الله تشريفاً لها لأنها خرجت من صخرة صماء بقدرة الله حسب طلبهم أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي دعوها تأكل وتشرب في أرض الله فليس عليكم رزقها ﴿ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ قريبٌ﴾ أي لا تنالوها بشيءٍ من السوء فيصيبكم عذاب عاجل لا يتأخر عنكم ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثةَ أيام﴾ أي ذبحوا الناقة فقال لهم صالح : استمتعوا بالعيش في بلدكم ثلاثة أيام ثم تهلكون قال القرطبي : إنما عقرها بعضهم وأضيف إلى الكل لأنه كان برضى الباقين ، فعقرت يوم الأربعاء فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد[2] ﴿ذلك وعدٌ غير مكذوب﴾ أي وعدٌ حق غير مكذوب فيه ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه﴾ أي فلما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا صالحاً ومن آمن به ﴿برحمةٍ منا﴾ أي بنعمةٍ وفضلٍ عظيم من الله ﴿ومن خزي يومئذٍ﴾ أي ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذُلّه ﴿إن ربَّكَ هو القويُّ العزيز﴾ أي القوي في بطشه ، العزيز في ملكه ، لا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر ﴿وأخذَ الّذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي أخذتهم صيحةٌ من السماء تقطعت لها قلوبهم ، فأصبحوا هامدين موتى لا حِرَاك بهم كالطير إذا جثمت ﴿كأن لم يَغْنَوا فيها﴾ أي كأن لم يقيموا في ديارهم ولم يَعْمُروها ﴿ألاَ إنَّ ثموداْ كفروا ربهم ألاَ بعداً لثمود﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن ثمود كفروا بآيات ربهم فسحقاً لهم وبُعْداً ، وهلاكاً ولعنة ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ هذه هي القصة الرابعة وهي قصة لوط وهلاك قومه المكذبين أي جاءت الملائكةُ الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط إبراهيمَ

(١) الكشاف ٢/٤٠٨ . (٢) القرطبي ٩/ ٦٠ .

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

بالبشارة بإسحاق[1] ، قال القرطبي : لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط مرّوا بإبراهيم فظنهم أضيافاً ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قاله ابن عباس ، وقال السدي : كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه[2] ﴿قالوا سلاماً﴾ أي سلموا عليه سلاماً ﴿قال سلامٌ﴾ أي قال لهم إبراهيم : سلام عليكم قال المفسرون : ردَّ عليهم التحية بأحسن من تحيتهم لأنه جاء بها جملة اسميّة وهي تدل على الثبات والاستمرار ﴿فما لبثَ أن جاء بعجلٍ حنيذٍ﴾ أي فما أبطأ ولا تأخر مجيئه حتى جاء بعجلٍ مشويٍّ فقدمه لهم قال الزمخشري : والعجل : ولد البقرة ويسمى « الحسيل » وكان مال إبراهيم عليه السلام البقر ، والحنيذ : المشوي بالحجارة المحماة في أخدود وقيل : الذي يقطر دسمه ويدل عليه « بعجلٍ سمين »[3] ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكِرَهم﴾ أي فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولا يأكلون منه أنكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ أي أحسَّ منهم الخوف والفزع قال قتادة : كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير وأنه جاء يحدث نفسه بشرّ[4] ﴿قالوا لا تخفْ إنا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾ أي قالت الملائكة : لا تخف فإنا ملائكة ربك لا نأكل ، وقد أرسلنا لإهلاك قوم لوط ﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾ أي وامرأة إبراهيم واسمها « سارة » قائمة وراء الستر تسمع كلامهم فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي بشرتها الملائكة بإسحاق ولداً لها ويأتيه مولودٌ هو يعقوب ابناً لولدها ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً﴾ أي قالت سارة متعجبة : يا لهفي ويا عجبي أألد وأنا امرأة مسنّة وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً فكيف يأتينا الولد ؟ ﴿إن هذا لشيءٌ عجيب﴾ أي إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجر به العادة قال مجاهد : كانت يومئذٍ ابنة تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة[5] ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين ؟ ليس هذا بمكان عجب على قدرة الله ﴿رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم ﴿إنه حميد مجيد﴾ أي إنه تعالى محمود ممجّد في صفاته وذاته ، مستحقٌّ للحمد والتمجيد من عباده ، وهو تعليل بديع لما سبق من البشارة .

البـــلاَغــَـة : ١ ـ ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ المراد بالسماء المطر فهو مجاز مرسل لأن المطر ينزل

(١) البشرى هي البشارة بالولد ، وقيل : بهلاك قوم لوط قال الزمخشري : والظاهر الولد . (٢) القرطبي ٩/ ٦٢ .
(٣) الكشاف ٢/ ٤٠٩ . (٤) الطبري ١٢/ ٧١ . (٥) البيضاوي ٢٥٣ .

من السماء ولفظ « مدراراً » للمبالغة أي كثير الدر .

٢ ـ ﴿فكيدوني جميعاً﴾ أمرٌ بمعنى التعجيز .

٣ ـ ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ استعارة تمثيلية شبّه الخلق وهم في قبضة الله وملكه وتحت قهره وسلطانه بالمالك الذي يقود المقدور عليه بناصيته كما يقاد الأسير والفرس بناصيته .

٤ ـ ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ استعارة لطيفة عن كمال العدل في ملكه تعالى فهو مطلع على أمور العباد لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به .

٥ ـ ﴿ولما جاء أمرنا﴾ الأمر كناية عن العذاب .

٦ ـ ﴿نجينا هوداً . . ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ التكرار في لفظ الإنجاء لبيان أن الأمر شديد عظيم لا سهل يسير ، ويسمى هذا الإطناب .

٧ ـ ﴿وعصوا رسله﴾ أي عصوا رسولهم هوداً وفيه تفظيع لحالهم وبيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض .

٨ ـ ﴿ألا إن عاداً . . ألا بعداً لعاد﴾ تكرير حرف التنبيه وإعادة لفظ « عاد » للمبالغة في تهويل حالهم .

تنبيه : لم يقل هود عليه السلام : إني أُشهد الله وأشهدكم وإنما قال : ﴿إني أُشْهد اللهَ واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾ وذلك لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما ، فأين شهادة الله العلي الكبير من شهادة العبد الحقير ؟ !

* * *

قال الله تعالى : ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع . . إلى . . ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٩) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة ضيوف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين مروا عليه وهم بطريقهم لإهلاك قوم لوط ، وبشروه بالبشارة السارة بولادة غلام له ، وقد ذكرت الآيات مرورهم على لوط وما حلَّ بقومه من النكال والدمار ، وهي القصة الخامسة ، ثم ذكرت قصة شعيب مع أهل مدين ، وقصة موسى مع فرعون ، وفي جميع هذه القصص عبرٌ وعظات .

اللغة : ﴿الروع﴾ الخوف والفزع ﴿منيب﴾ الإنابة : الرجوع والتوبة ﴿عصيب﴾ شديد في الشر قال الشاعر :

وإنـك إلاّ تُرضِ بكرَ بن وائلٍ ... يكنْ لك يومٌ بالعـراق عصيب

﴿يهرعون﴾ يسرعون قال الفراء : الإهراع الإسراع مع رعدة يقال أُهرع الرجل إهراعاً أي أسرع في رعدة من برد أو غضب[١] ﴿تُخْزون﴾ أخزاه: أهانه وأذله قال حسان :

فأخـزاكَ ربـي يا عُتيّبَ بن مالكٍ ولقَّاك قبل الموتِ إحدى الصَّواعق

﴿سجيل﴾ السّجيل والسّجين : الشديد من الحجر قاله أبو عبيدة ، وقال الفراء : طينٌ طبخ حتى صار كالآجر ﴿منضود﴾ متتابع بعضه فوق بعض في النزول ﴿مسوّمة﴾ معلَّمة من السيا وهي العلامة ﴿شقاقي﴾ الشقاق : العداوة قال الشاعر :

ألاَ من مبلغٌ عني رسولاً فكيف وجدتم طعم الشقاق[٢]

﴿رهطك﴾ رهط الرجل : عشيرته التي يتقوى بهم ﴿الورد﴾ المدخل ﴿الرفد﴾ العطاء والإعانة .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ

التفسير : ﴿فلما ذهبَ عن إبراهيم الرَّوع﴾ أي فلما ذهب عن إبراهيم الخوفُ الذي أوجسه في نفسه ، واطمأن قلبُه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة ﴿وجاءته البشرى﴾ أي جاءته البشارة بالولد ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ أي أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط ، وغرضُه تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون قال المفسرون: لما قالت الملائكة: ﴿إنا مهلكو أهل هذه القرية﴾ قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا : لا فما زال يتنزّل معهم حتى قال لهم: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونهم؟ قالوا لا فقال لهم ﴿إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾[٣] ﴿إنَّ إبراهيم لحليم﴾ أي غير عجولٍ في الانتقام من المسيء إليه ﴿أواهٌ منيب﴾ أي كثير التأوه والتأسف على الناس لرقة قلبه ، منيب رجّاعٌ إلى طاعة الله ﴿يا إبراهيم أعرضْ عن هذا﴾ أي قالت الملائكة : يا إبراهيم دع عنك الجدال في قوم لوط فقد نفذ القضاء بعذابهم ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ أي جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وإنهم آتيهم عذابٌ غير مردود﴾ أي نازلٌ بهم عذابٌ غير مصروفٍ عنهم ولا مدفوع ﴿ولمَّا جاءت رسلُنا لوطاً سيء بهم﴾ أي ولما جاءت الملائكة لوطاً أصابه سوء وضجر ، لأنه ظهر أنهم من البشر فخاف عليهم من قومه ﴿وضاقَ بهم ذرعاً﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم خشيةً عليهم من قومه الأشرار ﴿وقال هذا يومٌ عصيب﴾ أي شديد في الشر ﴿وجاءه قومُه يُهرعون إليه﴾ أي جاء قومه

(١) القرطبي ٩/ ٧٤ . (٢) الرسول هنا بمعنى الرسالة والبيت للأخطل كذا في القرطبي . (٣) انظر الطبري ١٢/ ٨٠ .

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا

يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعاً ﴿ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات﴾ أي ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين قال القرطبي : وكان سبب إسراعهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم ، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فتيةً ما رأيت مثلهم جمالاً فحينئذٍ جاءوا يُهرعون إليه[1] ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم﴾ أي قال لهم لوط : هؤلاء نساء البلدة أزوِّجكم بهن فذلك أطهر لكم وأفضل ، وإنما قال بناتي لأن كل نبيٍّ أبٌ لأمته في الشفقة والتربية ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي اخشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي ﴿أليس منكم رجلٌ رشيد﴾ أي استفهام توبيخ أي أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح ؟ ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ أي قال له قومه : لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من أرب ، وليس لنا رغبة فيهن ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور ، صرّحوا له بغرضهم الخبيث قبّحهم الله ﴿قال لو أنَّ لي بكم قوة﴾ أي لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها ﴿أو آوي إلى ركنٍ شديد﴾ أي ألجأ إلى عشيرة وأنصار تنصرني عليكم ، وجواب « لو » محذوف تقديره لبطشتُ بكم وفي الحديث (رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد)[2] يريدﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده ، فهو ركنه الشديد وسنده القوي قال قتادة : وذُكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في منعة من عشيرته[3] ، وحين سمع رسل الله تعالى تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار ﴿قالوا يا لوطُ إنّا رسلُ ربك لن يصلوا إليك﴾ أي قالت الملائكة للوط : إنا رسلُ ربك أُرسلنا لإهلاكهم وإنهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه ﴿فأَسْر بأهلك بقِطْعٍ من الليل﴾ أي اخرج بهم بطائفةٍ من الليل قال الطبري : أي اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل[4] ﴿ولا يلتفتْ منكم أحدٌ إلا امرأتك﴾ أي لا ينظر أحدٌ منكم وراءه إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا ، نهُوا عن الالتفات لئلا تتفطر أكبادهم على قريتهم قال القرطبي : إن امرأة لوط لمّا سمعت هدَّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها[5] ﴿إنه مصيبُها ما أصابهم﴾ أي إنه يصيب امرأتك من

(١) القرطبي ٩/ ٧٥ . (٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً . (٣) روح المعاني ١٢/ ١٠٨ . (٤) الطبري ١٢/ ٨٩ .
(٥) القرطبي ٩/ ٨٠ .

﴿جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾

العذاب ما أصاب قومك ﴿إنَّ موعدهم الصبحُ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبحُ ﴿أليس الصبحُ بقريب﴾ استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه فقالوا له : أليس وقت الصبح قريباً ؟ قال المفسرون : إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هرعوا نحوه ، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب ، فتسوروا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما بلوطٍ من الكرب قالوا يا لوط : افتح الباب ودعنا وإيَّاهم ، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاءَ ، النجاء كما قال تعالى ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾ ثم إن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر ، ولما حان وقت عذابهم أمر الله جبريل فاقتلع مَدائن قوم لوط - وهي خمسٌ - من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة ، ونباح الكلاب ، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة ولهذا قال تعالى ﴿فلما جاء أمرُنا جعلنا عاليها سافِلَها﴾ أي فلما جاء وقت العذاب قلبنا بهم القرى فجعلنا العالي سافلاً ﴿وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل﴾ أي أرسلنا على أهل تلك المدن حجارة صلبة شديدة من نارٍ وطين ، شبّهها بالمطر لكثرتها وشدتها ﴿منضود﴾ أي متتابعة ، بعضُها في إثر بعض ﴿مسوَّمة عند ربك﴾ أي معلَّمة بعلامة قال الربيع : قد كتب على كل حجر اسم من يُرمى به قال القرطبي : وقوله ﴿عند ربك﴾ دليلٌ على أنها ليست من حجارة الأرض[١] ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ أي ما هذه القرى المهلكة[٢] ببعيدة عن قومك « كفار قريش » فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ قال المفسرون : وقد صار موضع تلك المدن بحراً أُجاجاً يعرف بـ « البحر الميت » لأن مياهه لا تغذي شيئاً من الحيوان وقد اشتهر باسم « بحيرة لوط » والأرض التي تليها قاحلة لا تنبتُ شيئاً ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة أي وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً ، وقد كان شعيب من نفس القبيلة ولهذا قال « أخاهم » ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي اعبدوا الله وحده فليس لكم ربٌّ سواه ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ أي لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان ، وقد اشتهروا بتطفيف الكيل والوزن ﴿إني أراكم بخير﴾ أي إني أراكم في سعةٍ تغنيكم عن نقص الكيل والميزان قال القرطبي : أي في سعة من الرزق ، وكثرةٍ من النعم[٣] ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي إني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يومٍ مهلك ، لا يفلت منه أحد ، والمراد به عذاب يوم القيامة ﴿ويا قوم أوفوا المكيالَ والميزان بالقسط﴾ أي أتموا الكيل والوزن للناس بالعدل ﴿ولا تبخسوا الناسَ

(١) القرطبي ٩/ ٨٣ . (٢) وقيل الضمير يعود على الحجارة أي وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم . (٣) القرطبي ٩/ ٨٥ .

بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ

أشياءهم﴾ أي لا تُنْقصوهم من حقوقهم شيئاً ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي ولا تسعوا بالفساد في الأرض ، والعثيُّ أشد الفساد ﴿بقيَّتُ الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي ما أبقاه الله لكم من الحلال خيرٌ مما تجمعونه من الحرام ، إن كنتم مصدِّقين بوعد الله ووعيده وقال مجاهد : أي طاعة الله خير لكم[١] ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي ولستُ برقيب أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها وإنما أنا ناصح مبلِّغ ، وقد أعذر من أنذر ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان ، وبإيفاء الكيل والميزان ، ردّوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا : أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤ نا ؟ إن هذا لا يصدر عن عاقل ﴿أو أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء﴾ أي وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان . قال الإمام الفخر : إن شعيباً أمرهم بشيئين : بالتوحيد ، وترك البخس ، فأنكروا عليه أمره بهذين النوعين فقوله ﴿ما يعبُد آباؤ نا﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله ﴿نفعل في أموالنا﴾ إشارة إلى ترك البخس ، وقد يراد بالصلاة الدينُ والمعنى : دينُك يأمرك بذلك ؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعار الدين ، وروي أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدوا بقولهم ﴿أصلاتك تأمرك﴾ السخرية والهزء ، كما إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فتقول : هذا من مطالعة تلك الكتب[٢] ؟ ﴿إنك لأنتَ الحليمُ الرشيد﴾ أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشد ؟ قال الطبري : يستهزئون به فإنهم أعداء الله قالوا له ذلك استهزاءً ، وإنما سفّهوه وجهّلوه بهذا الكلام[٣] ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي﴾ أي قال لهم شعيب : أخبروني إن كنت على برهانٍ من ربي وهو الهداية والنبوة ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ أي أعطاني المال الحلال ، فقد كان عليه السلام كثير المال قال الزمخشري : والجواب محذوف دل عليه المعنى أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة ، ويقينٍ من ربي ، وكنتُ نبياً على الحقيقة أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان ، والكف عن المعاصي ؟ والأنبياء لا يُبعثون إلا لذلك[٤] ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي لست أنهاكم عن شيء وأرتكبه وإنما آمركم بما آمر به نفسي ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي لا أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم بقدر استطاعتي ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ أي ليس التوفيق

(١) الطبري ١٢/ ١٠٠ . (٢) تفسير الرازي ١٨/ ٤٢ . (٣) الطبري ١٢/ ١٠٣ . (٤) الكشاف ٢/ ٤٢٠ .

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ

إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته ﴿عليه توكلتُ وإليه أنيب﴾ أي على الله سبحانه اعتمدت في جميع أموري ، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة ﴿ويا قوم لا يجرمنَّكم شقاقي﴾ أي لا يكسبنكم عداوتي ﴿أن يصيبكم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ﴾ أي يصيبكم العذابُ كما أصاب قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح ، وقوم صالح بالرجفة وقال الحسن المعنى : لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار[1] ﴿وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوطٍ بمكان بعيد ، أفلا تتعظون وتعتبرون ! ؟ ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ أي استغفروا ربكم من جميع الذنوب ، ثم توبوا إليه توبةً نصوحاً ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ أي إنه جل وعلا عظيم الرحمة ، كثير الود والمحبة لمن تاب وأناب ﴿قالوا يا شعيبُ ما نَفْقه كثيراً مما تقول﴾ أي قالوا لنبيِّهم شعيب على وجه الاستهانة : ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به قال الألوسي : جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحِكَم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يُفهم معناه ، ولا يدرك فحواه مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خطيب الأنبياء)[2] ﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أي لا قوة لك ولا عزَّ فيما بيننا ﴿ولولا رهطُك لرجمناك﴾ أي ولولا جماعتك لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وما أنتَ علينا بعزيز﴾ أي لستَ عندنا بمكرَّم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك ﴿قال يا قوم أرهطي أعزُّ عليكم من الله﴾ ؟ هذا توبيخ لهم أي أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى ؟ فهل عشيرتي أعزّ عندكم من الله وأكرم ؟ قال ابن عباس : إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعزَّ عليهم من الله وصغُر شأنُ الله عندهم ، عزَّ ربنا وجلَّ ثناؤه[3] ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ أي جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعبأ به ، وهذا مثلٌ قال الطبري : يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل : نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها ولم يلتفت إليها[4] ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ أي إنه جل وعلا قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل﴾ تهديدٌ شديد أي اعملوا على طريقتكم إني عاملٌ على طريقتي

(١) القرطبي ٩/ ٩٠ . (٢) روح المعاني ١٢/ ١٢٣ . (٣) الطبري ١٢/ ١٠٦ . (٤) الطبري ١٢/ ١٠٦ .

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

كأنه يقول : اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة ، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه﴾ أي سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذله ويهينه ﴿ومن هو كاذب﴾ أي وتعلمون من هو الكاذب ﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ أي انتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكم ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيباً والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ أي وأخذ أولئك الظالمين صيحةُ العذاب قال القرطبي : صاح بهم جبريل صيحةً فخرجت أرواحهم من أجسادهم[1] ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي موتى هامدين لا حراك بهم قال ابن كثير : وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة ، وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمةٌ واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلّها ، وإنما ذكر في كل سياقٍ ما يناسبه[2] ﴿كأن لم يَغْنَوا فيها﴾ أي كأن لم يعيشوا ويقيموا في ديارهم قبل ذلك ﴿ألا بعداً لمدينَ كما بعدت ثمود﴾ قال الطبري : أي ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته ، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم[3] ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين﴾ هذه هي القصة السابعة وهي آخر القصص في هذه السورة والمعنى : لقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف إلهية ، وأيدناه بمعجزاتٍ قاهرة ، وبينات باهرة ، كالعصا واليد ﴿إلى فرعون وملائه﴾ أي إلى فرعون وأشراف قومه ﴿فاتَّبعوا أمر فرعون﴾ أي فأطاعوا أمر فرعون وعصوا أمر الله ﴿وما أمرُ فرعون برشيد﴾ أي وما أمر فرعون بسديد لأنه ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال ﴿يَقْدُم قومَه يوم القيامة﴾ أي يتقدم أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فأوردهم النار﴾ أي أدخلهم نار جهنم ﴿وبئس الوردُ المورود﴾ أي بئس المدخل المدخول هي ﴿وأُتبعوا في هذه لعنةً﴾ أي أُلحقوا فوق العذاب الذي عجله الله لهم لعنةً في الدنيا ﴿ويوم القيامة﴾ أي وأُردفوا بلعنةٍ أخرى يوم القيامة ﴿بئس الرفد المرفود﴾ أي بئس العونُ المُعان والعطاء المُعْطى لهم ، وهي اللعنة في الدارين .

(١) القرطبي ٩/ ٩٢ . (٢) المختصر ٢/ ٢٣١ . (٣) الطبري ١٢/ ٩٠.

البَــلاَغَــة : ١ - ﴿ذهب الروعُ . . وجاءته﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿جاء أمر ربك﴾ كناية عن العذاب الذي قضاه الله لهم .

٣ - ﴿أليس منكم رجلٌ رشيد﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ .

٤ - ﴿أو آوي إلى ركنٍ شديد﴾ قال الشريف الرضي : وهذه استعارة والمراد بها قومه وعشيرته ، جعلهم ركناً له لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته ، ويستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرصين ، وجاء جواب « لو » محذوفاً تقديره : لحلت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد ، والحذف ههنا أبلغ لأنه يوهم بعظيم الجزاء وغليظ النكال[1] .

٥ - ﴿عاليها سافلها﴾ بينهما طباقٌ .

٦ - ﴿عذاب يوم محيط﴾ فيه مجاز عقلي أسند الإحاطة لليوم مع أن اليوم ليس بجسم باعتبار أن العذاب يكون فيه ، فهو إسنادٌ للزمان .

٧ - ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ فيه استعارة تمثيلية كالشيء الذي يلقى وراء الظهر ولا يكترث به .

٨- ﴿فأوردهم النار﴾ فيه استعارة مكنية لأن الورود في الأصل يقال للمرور على الماء للاستسقاء منه، فشبّه النار بماءٍ يورد وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورود، وشبّه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ليكسر العطش وقوله ﴿وبئس الورد المورود﴾ تأكيد له لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد وفي النار إلهابٌ للعطش وتقطيع للأكباد، نعوذ بالله من نار جهنم.

* * *

قال الله تعالى :﴿ذلك من أنباء القرى نقصُّه عليك . . إلى . . وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من آية (١٠٠) إلى نهاية آية (١٢٣) .

المُنَاسَبَة : لمّا ذكر تعالى بعض قصص المرسلين ، وما حلَّ بأممهم من النكال والدمار ، ذكر هنا العبرة من سرد هذه القصص ، وهي أن تكون شاهداً على تعجيل العقوبة للمكذبين والانتقام العاجل منهم ، وبرهاناً على تأييد الله ونصرته لأوليائه وأنبيائه ، وقد ذكرت الآيات يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وختمت السورة الكريمة بأمر الرسولﷺ بالصبر على الأذى ، والتوكل على الحي القيوم .

(١) تلخيص البيان ١٦٣ .

اللغة : ﴿حصيد﴾ مستأصل كالزرع المحصود ﴿تتبيب﴾ التباب : الهلاك والخسران قال لبيد :

فلقد بَليتُ وكلُّ صاحب جِدَّةٍ لبِلىً يعودُ وذاكُمُ التَّتبيبُ[1]

﴿زفير﴾ الزفير : إخراج النَّفَس من شدة الجري ﴿وشهيق﴾ الشهيقُ : ردُّ النَّفَس وقال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره من النَّفَس في حال الغمّ الشديد ويخرجه ، والشهيقُ أن يخرج ذلك النَّفَس بشدة[2] وقال بعض أهل اللغة : الزفير مثلُ أول نهيق الحمار ، والشهيق مثل آخره ﴿مجذوذ﴾ مقطوع من جذَّه يجذه إذا قطعه ﴿تركنوا﴾ الركون : الميلُ إلى الشيء والرضا به ﴿زُلَفاً﴾ الزُّلَف : جمع زُلْفة وهي الطائفة من أول الليل قال ثعلب : هي أول ساعات الليل ، وأصلها من الزلفى وهي القربة ﴿وأزلفت الجنة﴾ قُرِّبت ﴿أُترفوا﴾ التَّرف : البطر يقال فلان مترف أي أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿مرية﴾ شك وريب .

سبب النزول : عن ابن مسعود أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : إني عالجتُ امرأةً في أقصى المدينة ، وإني أصبتُ منها من دون أن أمسَّها، وأنا هذا فاقض فيَّ ما شئتَ ! فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت على نفسك ، فلم يردَّ عليه رسولُ الله ﷺ شيئاً ، فانطلق الرجل ونزلت هذه الآية ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزُلَفاً من الليل إنَّ الحسنات يذهبْن السيئات﴾ فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه فتلاها عليه[3] .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ

التفسير : ﴿ذلك من أنباء القرى نقصُّه عليك﴾ أي ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرسل ، نقصه عليك يا محمد ونخبرك عنه بطريق الوحي ﴿منها قائم وحصيد﴾ أي من هذه القرى ما هو عامر قد هلك أهلُه وبقي بنيانُه ، ومنها ما هو خراب قد اندثر بأهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ أي وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب ، ولكنْ ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمته ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾ أي ما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله ، ولا دفعت عنهم شيئاً من عقاب الله وعذابه ﴿لمّا جاء أمر ربك﴾ أي حين جاء قضاء الله بعذابهم ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ أي وما زادتهم تلك الآلهة غير تخسير وتدمير ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذَ القرى وهي ظالمة﴾ أي مثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين ، يأخذ تعالى

(١) القرطبي ٩/ ٩٥ . (٢) البحر ٥/ ٢٥١ . (٣) القرطبي ٩/ ١١١ .

عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ

بعذابه الفجرة الظلمة قال الألوسي : وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى كما قال عليه السلام (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ الآية[١] ﴿إن أخذه أليمٌ شديد﴾ أي إن عذابه موجع شديد ، وهذا مبالغة في التهديد والوعيد ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لمن خاف عذاب الآخرة﴾ أي إن في هذه القصص والأخبار لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة ﴿ذلك يوم مجموعٌ له الناس﴾ أي يجتمع فيه الخلائق للحساب والثواب والعقاب ﴿وذلك يوم مشهود﴾ أي يشهده أهل السماء والأرض ، والأولون والآخرون قال ابن عباس : يشهده البر والفاجر[٢] ﴿وما نؤخره إلا لأجلٍ معدود﴾ أي ما نؤخر ذلك اليوم ـ يوم القيامة ـ إلا لزمنٍ معيَّن سبق به قضاء الله ، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿يوم يأت لا تكلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه﴾ أي يوم يأتي ذلك اليوم الرهيب لا يتكلم أحدٌ إلا بإذن الله تعالى ﴿فمنهم شقيٌّ وسعيد﴾ أي فمن أهل الموقف شقيٌّ ، ومنهم سعيد كقوله ﴿فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير﴾ ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيق﴾ أي فأما الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم ، لهم من شدة كربهم ﴿زفيرٌ﴾ وهو إخراج النَّفَس بشدة ﴿وشهيقٌ﴾ وهو ردُّ النَّفَس بشدة ، وقال بعض المفسرين : شبَّه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير قال الطبري : في روايته عن قتادة : صوتُ الكافر في النار صوت الحمار ، أوله زفير وآخره شهيق[٣] ﴿خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض﴾ أي ماكثين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السموات والأرض قال الطبري : إن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت : هذا دائمٌ دوام السموات والأرض بمعنى انه دائمٌ أبداً ، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم قال ابن زيد : ما دامت السماء سماءً ، والأرض أرضاً والمعنى خالدين فيها أبداً[٤] وقال الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن تراد سمٰوات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد ، والثاني : أن يكون عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع[٥] ﴿إلا ما شاء ربُّكَ﴾ الاستثناء في أهل التوحيد[٦] ، لأن لفظة ﴿شقوا﴾ تعم الكفار والمذنبين، فاستثنى الله من خلود أهل الشقاوة العصاة من المؤمنين ، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاعة سيد المرسلين ﷺ ويدخلهم الله الجنة ويقال لهم : ﴿طبتم فادخلوها خالدين﴾ ﴿إن ربَّك فعَّال لما يريد﴾ أي يفعل ما يريد يرحم ويعذب كما يشاء ويختار ، لا معقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه

(١) روح المعاني ١٢/١٣٧ . (٢) القرطبي ٩/٩٦ . (٣) الطبري ١٢/١١٧ . (٤) الطبري ١٢/١١٧ . (٥) الكشاف ٢/ ٤٣ .
(٦) هذا اختيار الطبري وهو أحد أوجه عشرة ذكرها المفسرون في معنى الاستثناء وانظر القرطبي ٩/ ٩٩ .

فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا

﴿وأمَّا الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرضُ إلا ما شاء ربك﴾ هذا بيانٌ لحال الفريق الثاني «أهل السعادة» اللهم اجعلنا منهم أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة ، لا يُخْرجون منها أبداً ، دائمون فيها دوام السموات والأرض ، أو ما دامت سمواتُ الجنة وأرض الجنة حسب مشيئته تعالى ، وقد شاء تعالى لهم الخلود والدوام **﴿عطاءً غير مجذوذ﴾** أي عطاءً غير مقطوع عنهم ، بل هو ممتد إلى غير نهاية **﴿فلا تك في مريةٍ مما يعبد هؤلاء﴾** أي لا تكن في شكٍ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال بمعنى لا تشك في فساد دينهم **﴿ما يعبدونَ إلا كما يعبدُ آباؤُهم من قبلُ﴾** أي هم متبعون لآبائهم تقليداً من غير حجة ولا برهان ، وهذه تسلية للرسول ﷺ ووعدٌ له بالانتقام منهم ، إذ حالُهم حالُ من سبقهم من الضالين المكذبين ، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم فسينزل بهم مثله **﴿وإنّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾** أي وسنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص وقال ابن عباس : ما قُدِّر لهم من الخير والشر[1] **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاخْتُلِفَ فيه﴾** قال الطبري : يقول تعالى مسلياً نبيه في تكذيب مشركي قومه له : لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فلقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك الفرقان ، فاختلف في ذلك الكتاب ، فكذَّب به بعضُهم ، وصدَّق به بعضُهم ، كما فعل قومك[2] **﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربك لقُضي بينهم﴾** أي ولولا حكم الله السابق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقُضي بينهم في الدنيا فجوزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ولكن سبق القدر بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب **﴿وإنهم لفي شكٍ منه مريب﴾** أي وإن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مُريب لهم ، إذ لا يدرون أحقٌ هو أم باطل ؟ **﴿وإنَّ كلاً لمَّا ليوفينَّهم ربُّك أعمالَهم﴾** أي وإنَّ كلاً من المؤمنين والكافرين لمَّا ينالوا جزاء أعمالهم وسيوفيهم ربُّك جزاءها في الآخرة **﴿إنه بما يعملون خبير﴾** أي عليمٌ بأعمالهم جميعاً ، صغيرها وكبيرها ، وسيجازيهم عليها **﴿فاستقمْ كما أُمرت﴾** أي استقم يا محمد على أمر الله واثبُت وداوم على الاستقامة كما أمركَ ربُّك **﴿ومن تابَ معك﴾** أي ومن تاب من الشرك والكفر وآمن معك **﴿ولا تطْغَوا﴾** أي لا تجاوزوا حدود الله بارتكاب المحارم **﴿إنه بما تعملون بصير﴾** أي إنه تعالى مطّلع على أعمالكم ويجازي عليها **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾** أي لا تميلوا الى الظلمة من الولاة وغيرهم من الفسقة الفجرة فتمسكم نار جهنم قال

(١) الطبري ١٢/١٢٢ . (٢) الطبري ١٢/١٢٣ .

لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

البيضاوي : الركونُ هو الميل اليسير أي لا تميلوا إليهم أدنى ميل فتمسكم النار بركونكم إليهم ، وإذا كان الركونُ اليسير إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك ، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم ، والميل إليهم كلَّ الميل[١] ؟ ! ﴿وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنْصرون﴾ أي ليس لكم من يمنعكم من عذابه ثم لا تجدون من ينصركم من ذلك البلاء قال القرطبي : والآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي فإن صحبتهم كفرٌ أو معصية إذْ الصحبةُ لا تكون إلا عن مودَّة ، وأما صحبة الظالم على التقيَّة فمستثناةٌ من النهي بحال الاضطرار[٢] ﴿وأقم الصلاةَ طرفيِّ النهار﴾ أي أقم الصلاة المكتوبة على تمامها وكمالها أول النهار وآخره ، والمراد صلاة الصبح والعصر لأنهما طرفا النهار[٣] ﴿وزُلَفاً من الليل﴾ أي ساعاتٍ منه قريبةً من النهار ، والمراد بهما المغرب والعشاء ﴿إن الحسناتِ يُذْهبن السيئات﴾ أي إن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفِّر الذنوب الصغائر ، لحديث (الصلواتُ الخمسُ كفارةٌ لما بينها ما اجتُنبتْ الكبائرُ) قال المفسرون : المراد بالحسنات الصلواتُ الخمسُ واستدلوا على ذلك بسبب النزول ، وهذا قول الجمهور ، والأظهر أن المراد بها العموم وهو اختيار ابن كثير حيث قال : المعنى إن فعل الخيرات يكفِّر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث (ما من مسلم يُذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غُفر له)[٤] ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ أي ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة على الصلاة ، عظةٌ للمتعظين وإرشادٌ للمسترشدين ﴿واصبرْ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي اصبر يا محمد على ما تلقى من المكاره ومن أذى المشركين ، فإنَّ الله معك وهو لا يضيع ثواب المحسنين ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقيةٍ ينهون عن الفساد في الأرض﴾ أي فهلاَّ كان من الأمم الماضية قبلكم أولُو عقل وفضل ، وجماعةٌ أخيارٌ ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ استثناء منقطع أي لكنْ قليلاً منهم ، نهَوْا عن الفساد فَنَجَوْا قال في البحر : « لولا » في الآية للتحضيض صحبها معنى التأسف والتفجع مثل قوله ﴿يا حسرةً على العباد﴾ والغرضُ التأسف على تلك الأمم التي لم تهتد كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره[٥] ﴿واتَّبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه﴾ أي واتَّبع أولئك الظلمة شهواتهم ، وما نُعِّموا به من الاشتغال بالمال واللذات وآثروها على الآخرة ﴿وكانوا

(١) البيضاوي ٢٥٨ . (٢) القرطبي ٩/١٠٨ . (٣) هذا قول الحسن وقتادة واختار الطبري أنهما الصبح والعصر وهو مروي عن ابن عباس . (٤) المختصر ٢/ ٢٣٥ . (٥) البحر ٥/ ٢٧١ .

ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

مجرمين﴾ أي وكانوا قوماً مصرِّين على الإجرام ﴿وما كان ربك ليُهْلِكَ القرى بظلم وأهلُها مصلحون﴾ أي ما جرت عادة الله تعالى أن يهلك القرى ظلماً وأهلُها مصلحون في أعمالهم ، لأنه تعالى منزّه عن الظلم ، وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم ﴿ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمةً واحدة﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلَّهم مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام ، ولكنَّه لم يفعل ذلك للحكمة ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربُّك﴾ أي ولا يزالون مختلفين على أديان شتى ، وملل متعددة ما بين يهودي ، ونصراني ، ومجوسي ، إلا ناساً هداهم الله من فضله وهم أهل الحق ﴿ولذلك خلقهم﴾ اللام لامُ العاقبة أي خلقهم لتكون العاقبة اختلافهم ما بين شقي وسعيد قال الطبري : المعنى وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم ، فريق في الجنة ، وفريقٌ في السعير[1] ﴿وتمّتْ كلمةُ ربك لأملأنَّ جهنمَ من الجِنَّة والناس أجمعين﴾ أي تمَّ أمر الله ونفذ قضاؤه بأن يملأ جهنم من الجنّ والإِنس من الكفرة الفجرة جميعاً قال الألوسي : والجملة متضمنة معنى القسم ولذا جيء باللام في ﴿لأملأنَّ﴾[2] وكأنه قال : واللهِ لأملأن جهنم من أتباع إبليس من الإنس والجن أجمعين ﴿وكلاً نقصُّ عليك من أنْباء الرسل ما نثبّت به فؤادك﴾ أي كل هذه الأخبار التي قصصناها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين ، إنما هي بقصد تثبيتك على أداء الرسالة ، وتطمين قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة فتصبر كما صبروا ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي جاءك في هذه الأنباء التي قصها الله عليك النبأ اليقيني الصادق ﴿وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾ أي وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما فيه عظة وعبرة للمعتبرين ، وخصَّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بمواعظ القرآن ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنَّا عاملون﴾ أي اعملوا على طريقتكم ومنهجكم إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا ، وهو أمرٌ ومعناه التهديد والوعيد ﴿وانتظروا إنَّا منتظرون﴾ تهديدٌ آخر أي انتظروا ما يحلُّ بنا إنا منتظرون ما يحل بكم من عذاب الله ﴿ولله غيبُ السموات والأرض﴾ أي علمُ ما غاب وخفي فيهما ، كلُّ ذلك بيده وبعلمه ﴿وإليه يُرجع الأمر كله﴾ أي إليه يردُّ أمر كل شيء ، فينتقم ممن عصى ،ويثيب من أطاع وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفار بالانتقام منهم ﴿فاعبده وتوكَّلْ عليه﴾ أي اعبد ربَّك وحده ، وفوّضْ إليه أمرك ، ولا تعتمدْ على أحدٍ سواه ، فإنه كافي من توكَّل عليه

(١) الطبري ١٢/ ١٤٤ . (٢) روح المعاني ١٢/ ١٦٥ .

﴿وما ربك بغافل عمّا تعملون﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ، ويجازي كلاً بعمله .

البَلاَغَة : ١ - ﴿منها قائم وحصيد﴾ شبَّه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه ، وشبَّه ما هلك مع أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمناجل على طريق الاستعارة المكنية .

٢ - ﴿وما ظلمناهم ولكنْ ظلموا أنفسهم﴾ فيه طباق السلب .

٣ - ﴿إذا أخذ القرى﴾ مجازٌ عن الأهل أي أخذ أهل القرى .

٤ - ﴿شقيٌ وسعيد﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٥ - ﴿فأما الذين شقوا .. وأما الذين سُعدوا﴾ فيه لفٌ ونشر مرتب .

٦ - ﴿لولا كلمة سبقت من ربك﴾ الكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر .

٧ - ﴿إنَّ الحسنات يذهبن السيئات﴾ بينهما طباقٌ .

٨ - ﴿ذكرى للذاكرين﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

تـنبيـه : خلود أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، ثابتٌ مقطوعٌ به بالنصوص العديدة ، وأما الاستثناء بالمشيئة في هذه السورة فقد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار ، والنكتة في ذكره بيان أنَّ هذه الأمور إنما كانت بمشيئته تعالى ولو شاء لغيَّرها ، وليس شيء خارج عن مشيئته ، فالإيمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والخلود والخروج كلها بمشيئته تعالى .

فَائِدَة : أشار الشهاب إلى لطيفةٍ من البلاغة القرآنية ، وهي أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ وإن كانت عامة في المعنى ﴿فاستقم كما أُمرت ، وأقم الصلاة ، واصبر﴾ وفي المنهيات جمعت للأمة ﴿ولا تطغوا ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ كذا في العناية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة هود »

* * *

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معَالي السيّد حسَن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لِلهِ تعَالى

يوزع مجـانًا ولا يُباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالي السيّد حَسَن عَبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقفًا لِلهِ تَعَالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع